آوباكو

أوباكو

الكاتب: إسراء أحمد الشافعي

- **رقم الإيداع:** ٣٢٦٢٥ /٢٠٢٠
- **الترقيم الدولي:** 978-977-7761-13-9
- **تصميم الغلاف:** وحيد محمد
- **تدقيق لغوي:** أحمد ناجح
- **تنسيق داخلي:** عبدالعليم مِنا
- **الطبعة الأولى ٢٠٢٠**

الناشر: نبوغ للنشر

والتوزيع/http://www.nebogh.com

المدير العام: مروة المصري

darnebogh@gmail.com

٠١١٠٠٥٢٨٥٢٢

جميع الحقوق محفوظة ©

أوباكو

رواية

إسراء أحمد الشافعي

دار نيوغ للنشر والتوزيع

الإهداء

إهداء إلى كُل مستضعفٍ في الأرض، وكل من هو مرغم على فعل شيء، تحت تهديد قوة طاغية.. إلى من استغل البشر طيبته لأجل الوصول لغاياتهم.. وإلى كل من يشعر بالقهر جراء الكسرة، وكل من فقد قواه في لحظه ما، وانهار أمام الأيام وبكى.. إلى كل من تزعزع ثباته، وفقد صموده، وأمام الظروف خر راكعًا.. أنت تمتلك طاقة دفينة بداخلك.. كلُ ما في الأمر أنك تحتاج بعض الشجاعة لتتصدى، وبعض الذكاء لتتحدى.. فاخرج عن صمتك.

(1)

تحت سماء الليل، وعلى أرض مطار موندراي، يحدق بلال بعينه المترقرقتين في عيني والده بعد أن احتضنه قائلًا

- إلى اللقاء يا أبي

يرد كريم بصوت مضطرب

- إلى اللقاء يا بني، ثم يعود ليبتسم ويتابع

- ابذل قصارى جهدك.. أريد أفضلُ ما يمكن أن تفعله

فيبتسم بلال وهو ممسكًا بيد والده وهو يسلم عليه قائلًا

- لا تقلق.. لن تهتز الثقة بيننا

تنظر إليه والدته ثم تبتسم ابتسامة يشوبها الحزن على فراقه وتحتضنه..

-اعتني بنفسك جيداً

يلتفت بلال على صوت يخبر باقتراب إقلاع الطائرة فيقبل أُخته على جبينها ثم يتركهم مغادرًا.

ففي سِنه الثامن عشر. يستقل بلال طائره رقم ٥٤٧٨ المتجهة إلى بلاد تدعي اوباكو بعد أن حصل على منحه لدراسة العلوم هناك.. وبِما أن والده يثق بهِ ثقة عمياء.. ويتركه دائماً يفعل ما يشاء، فلم يتردد في تركه يذهب لتحقيق حلمه.. فكريم لن يقف عائقا بين ولده

وما أراد.. وذلك بعد أن تعلم درسًا من والده أيمن حينما أرهقته معاناته معه حين كان يريده دائماً فعل ما كان يريده هو دون أن يلتفت إلى الآن إرادة ابنه.. وذلك لأن معظم الآباء يرفضون ما يريده أبنائهم بحُجه أنهم يرون الأفضل وما لا يراه طالب الثامنة عشر..

جلس بلال على كرسيه ينظر من خلف زجاج الطائرة إلى بلاده التي توغل حبها في قلبه. ترقرقا في عيناه دموعاً لوداع أسرته..

يتغلغل في صدره رائحة عطر والده التي لاتزال عالقة في ملابسه، وقبله أُمهُ لازال أيضًا يشعر بها على جبينه.. يُمسك في يده هدية صغيرة من أُخته حنين ويتأملها مبتسماً، يبدو أن الحنين سيزداد من هذه اللحظة..

*****

تقلع الطائرة فينبض قلب بلال بشدة. ليس خوفاً من المرتفعات، بل هذا ما يفعله الفراق بقلب أي بشري يبتعد عن ما يحب. في نفس الوقت الذي تضخ أفكار أخرى إلى عقله مع كل قطره دماء وتتغلغل عبر ثناياه. معلقا بصدره آمالا يسعي للوصول إليها في اوباكو.. ينظر عبر النافذة مره أخرى ليرى أضواء مدينته تشع كأنها نجوم السماء ليلًا.. وبما أنها كانت ليله شتائيةٍ.. فقد صعدت الطائرة لتحلق أعلى الغيوم.. ليرى بلال شكلاً آخر من أشكال الطبيعة التي لم يسبق له أن رآها من قبل..

****

يهدأ عقله لبعض الوقت ويغفو عدة دقائق ليفتح عيناه مره أخرى حين يطرق أُذناه صوتاً يخبرهم أنه لم يتبقي سوى خمسة عشر دقيقه على الوصول، ينظر إلى ساعته ليري أنها قد تخطت الثانية بعد منصف الليل يحاول الخروج من إطار تفكيره والحنين إلى بلاده وعائلته إلى ما سافر لأجله.. تميل الطائرة لتهبط وتلامس عجلاتها أرض المطار، وتظل تسير عده أمتار للأمام حتى توقفت.. وعلى قمة سلمها يقف بلال ليرمق بعينه منظرًا في قمة الجمال..

فها هي أضواء أوباكو تتلألأ في الظلام كالدر المكنون.. ينعكس في عيناه اللامعتين رونقها وجمالها، فيظل واقفاً لبعض الوقت يتأملها، يمر الأشخاص من جانبه ويرتطم أحدهم بكتفه وهو لازال قابعاً في مكانه شاردًا بنظره وعقله في جمال المكان حتى تنحنح شخصا من خلفه فتذكر بلال أنه لازال يقف على سلم الطائرة فيتنبه قائلاً

- عذرًا سيدري

*****

يهبط على أرض تلك المدينة بسعادة تغمر قلبه...ورغم أن بلاده موندراي رائعة أيضاً... إلا أنه لازال مندهشا من جمال أوباكو.. يسير بين الزحام إلى خارج المطار بعد أن التقط حقيبته.. يرتطم بكتفه هذه وذاك، يمسك بيده خارطة صغيره للمدينة ترشده إلى المكان الذي سيقيم به طيلة مده دراسته هنا..

ولأنها كانت أولى المرات التي يذهب فيها لتلك المدينة، فالأفضل له أن يستقل سيارة أُجره للمكان الذي يقصده.. فخرج من المطار إلى الطريق مشيراً بيده إلى إحداها فتوقفت أمامه

- السلام عليكم

رد الرجل بوجه بشوش

- إلى أين تريد الذهاب يا بني؟

رد بلال

- ١٥ شارع كاردينال مبني ميشاند

ابتسم الرجل قائلاً

- طالب جامعي صحيح؟

تعجب بلال من معرفته وأجاب

- أجل سيدي

قال الرجل بعد أن ركب بلال معه وبدأت السيارة تتحرك

- إن هذه المدينة يا بني هي أم لكثير من الطلاب الذين أتوا من أنحاء العالم قاصدين العلم فيها، إنها ترحب بالجميع دائما.. ثم ينظر إليه في مرآه السيارة ويأخذ نفسًا عميقًا ثم يخرجه ببطء قائلاً

- لقد انتظرتك طويلاً

يستوقفه بلال: - انتظرتني؟!

ضحك الرجل قائلًا

-أقصد أنني أنتظر عند المطار كثيرًا حتى ألتقي بشخص مثلك يستقل سيارتي..

صمت بلال قليلاً حين شعر بأن حديث ذاك الرجل مناقضاً.. ومن بين الصمت يعود الرجل للتحدث مرة أخرى قائلاً

- يجب أن تتوخي الحذر.. فليس جميع من هنا سيروقون لك.. يجب أن تضع مسافات آمنه بينك وبين البشر ولا تتعمق فيهم.. إن حذرك ممن أمامك لابد أن يكون أكبر من إيمانك به..

ضحك بلال ضحكه مخبئة في صدره وتساءل لم كل هذه المبالغة...؟!

ثم بدأ ينظر عبر زجاج النافذة ليرمق بعينه جمال شوارع تلك المدينة ومبانيها الضخمة وعلى جانبي طريقه كان يصطف عدد كبير من المتاجر التي أضاءت ظلامها

نصف ساعة من الإنطلاق وها هي السيارة تقف أمام مبني ضخم يبدو أنه قد تم بناءه مؤخراً، تظهر عليه الفخامة والجمال، لقد كان مبنى ميشاند ذاك خاص بالجامعة التي يدرس بها..

هبط بلال من السيارة شاكراً السائق ثم وقف أمام مبنى ميشاند لبضع دقائق ينظر إلى فخامته وجماله والأضواء التي تجعل منه براقاً في عين كل ناظرٍ إليه...

يشعر بلال بأن ضوءًا ما يأتيه عن يمينه وأحدهم قد أطلق إنذار سيارته فتنبه بلال أنه يقف في منتصف الطريق فيعتذر من السائق ويعبر طريقه تجاه مبنى ميشاند ويدلف إليه في شغف، فور دخوله

وعلى يمين بوابته الضخمة يلتقي بلال بالسيد حكيم وهو المسئول عن ذاك المبني، قابله بابتسامةٍ دافئةٍ مُرحبًا بوجه بشوش، آخذًا منه أوراقه ليتحقق من هويته ثم نادي عاليًا

- كامل.. كامل!!

أتى رجل من داخل غرفه صغيره في الطابق السفلي من المبني راكضاً يرتدي زيًا موحداً مع عمال هذا المكان.. يبدو أنه أحدهم.. أتى مسرعاً

- نعم سيدي

نظر إليه حكيم قائلاً

- خذ بلال إلى غرفه رقم ٤٦

نظر كامل إلى بلال ملقياً التحية ثم قام بحمل حقيبته آخذا به إلى غرفته الخاصة، نظر إليه بعد أن فتح بابها وأعطى بلال مفتاحه قائلاً

- أهلا بك سيدي.. هل تريدني فعل أي شيء أخر؟

نظر إليه بلال مبتسمًا وهو يقول

- شكرا لك..

غادر كامل ودخل بلال الغرفة التي كانت مساحتها صغيرة لا تتعدي عشرون مترًا تحتوي على سرير أسفل نافذة زجاجيه كبيرة تلتهم نصف الجدار...مغطاة بستار أسود اللون وبجانب ذاك السرير مكتب وأعلاه مكتبه صغيره للكتب.. وفي إحدى زوايا الغرفة يوجد حمام صغير.. بينما في الزاوية الأخرى توجد أريكة وأمامها طاوله يعلوها تلفاز، ورغم صغر تلك الغرفة إلا أنها كانت كافيه

اقترب بلال من السرير الذي وقف عليه بركبتيه ثم فتح النافذة المطلة على المدينة من الطابق السابع والعشرون..

ويا لجمال المنظر والمكان الذي استوقفه رغمًا عنه ليبحر مجبرًا مع سفن الليل التائهة التي تبحث عن هداها بين نجوم السماء، يظل لفترةٍ كبيرةٍ يحدق في سماء الليل ونجومها ثم يتذكر عائلته ويبتسم، يتحدث بهدوء ويتمتم ببعض الكلمات همسًا وكأنه يرسل رسائلاً ستأخذها الرياح وتصل حتمًا إليهم.. فهو دائماً ما يثق بتخاطر الأرواح. التفت بلال إلى الغرفة مره أخرى حتى لمح حقيبته التي لاتزال بجانب الباب، فقام بإفراغها وتبديل ملابسه ثم بدأ يغفو على الأريكة أمام التلفاز بعد أن فتحه على إحدى قنوات القرآن الذي أنزل السكينة على قلبه وطمئنه.

*****

على أرض اوباكو تشرق شمس يوم جديد ليستيقظ بلال في التاسعة صباحاً على صوت جرس الباب يحاول فتح عيناه التي لم تتأقلم على الضوء بعد بصعوبة.. غسل وجهه بماء فاتر أنعش جسده النائم.. ثم تقدم متثاقلاً يشعر بألم في رقبته بسبب النوم على الأريكة.. سار عدة خطوات حتى الباب ثم فتحه ولكنه فوجئ أنه لم يجد أحداً، فقال متذمراً

- من ذاك الذي يطرق الباب ثم يرحل!! يصمت قليلاً ثم يتابع قوله أووف يبدو أنني من تأخرت في فتحه.. ثم يتساءل ضاحكاً

- من ذاك المهم الذي يعرفني هنا؟

لابد وأنهم العاملون بالمكان، ثم يهم لإغلاق الباب، حتى يعود لفتحه مره أخرى مندهشا حين يلاحظ شيئاً ما قد تركه له أحدهم...

(2)

بعد أن لاحظ بلال شيئاً ما موجودًا أمام غرفته عاد ليفتح الباب أكثر في لهفه بعدما كاد أن يغلق.. فإذا به يرى رسالة، انحنى ثم التقطها بيده وأخذ يحدق بها ويقلبها يمينا ويسارًا ليري من المرسل ولكنه لم يجد أيّ أسماء مدونة.

دلف إلى الغرفة ثم أغلق الباب وهو لازال ينظر لتلك الرسالة في يده، جلس على الأريكة يمزق حافة غلافها ليصل إلى ورقه كبيره بيضاء مكتوب في منتصفها

" أهلا بك في أوباكو " يضحك قائلًا

- فندق أبله، حتى التحية أصبحت مبالغاً فيها.. ثم يترك تلك الورقة على الأريكة وينهض ليبدل ملابسه ثم يذهب خارجا للتجول في المدينة..

*****

في منتصف طريق المشاة يسير بلال واضعًا في جيبه يداه ينظر لأعلى حيث المباني شاهقة الارتفاع ثم يعود بنظره مره أخرى إلى الطريق أمامه فيجد على أحد جانبيه حديقة خضراء ينبت فيها بعض الأشجار كثيفة الأوراق وأزهار تخرج من صناديق صغيره وأسفل تلك الأشجار يجلس مجموعه من الأطفال يفترشون العشب لا تتخطي

أعمارهم سن العاشرة، تقوده قدماه رغماً عنه ويقترب منهم أكثر ليجلس على أحد مقاعد الحديقة ينظر إليهم ويبتسم حين يعود بذاكرته إلى أيام طفولته التي لازالت مرسخه وعالقة بين ثنايا عقله..

وبما أنه كان بداية لفصل الشتاء فالشمس هي الأخرى كانت تختبئ خلف السحاب ثم تعود لتظهر بين الحين والآخر كأنها تتجرد من ثياب عمرها الطاعن لتشارك الأطفال في لعب الغميضة..

كان المنظر مبهجا للحد الذي جعله يشعر بالسعادة تستحوذ على قلبه لتحيط به كأنها بحر جمال أغرقه أو أم تحتضنه.. جلس لبعض الوقت يتأمل المكان ثم نهض من مقعده عائدًا إلى مسكنه.. وعند بوابه مبنى الجامعة يرتطم كتفه بأحد الأشخاص فيلفت إليه معتذراً

- آسف جداً.. ثم تأتيه الصدمة حين يحدق في وجه ذاك الشخص مندهشاً مما يرى، إنه صديق الثانوية!! فيقول بدهشة

- من؟ خالد!!

يرد خالد بلهفه

- بلال؟ أحقاً هذا أنت!!

فيجيبه بلال ضاحكاً بعد أن احتضنه

- لا لست أنا

يبتسم خالد

- حمدًا لله أنك هنا.. الأمر مربك

يرد بلال: - أي أمر؟!

فيجيبه خالد

- أن تكون بعيداً عن العائلة والأصدقاء وكل من تحب، إن أسوأ لعنة قد تحل على أي بشري هي أن يصبح وحيداً

رد بلال مبتسمًا

- منذ متى وأنت هنا؟

فيجيب خالد

- ثلاثةُ أيام

يضحك بلال بهستيريةٍ مطلقةٍ ويحاول إخراج كلماته من بين الضحك قائلًا

- ثلاثة أيام فعلوا بك هذا؟!

يبتسم خالد قائلاً

- لا عليك.. غداً تدرك

*****

تركه بلال مغادراً إلى الطابق السابع والعشرون حيث غرفته ليرتمي بجسد أنهكه السير على الأريكة ويُخرج بصعوبة هاتفه من جيبه ليجري اتصالاً إلى موندراي.. أجل كما جال في خاطرك الآن (والداه) عدة ثوان ويجيب والده

- السلام عليكم

فيبتسم بلال ويرد قائلاً

- وعليك السلام يا أبي.. كيف حالك وأمي وحنين؟

يرد كريم

- بخيرٍ يا بني.. كيف حالك أنت، وكيف هي أوباكو؟!

يرد بلال بسعادة

- إنها رائعة. لا ينقصها سواكم

يضحك كريم قائلاً

- بل منزلنا هو من ينقصك. ثم يصمت قليلاً وتتغير نبرة صوته

- اعتني بنفسك جيداً يا بني

تنتهي المكالمة بعد عدة دقائق وبلال لازال شارداً يبتسم ويتردد في أذنه صدي صوت والده وكلماته التي لازالت عالقة في مسمعه، يقطع تفكيره صوت طرق على الباب فينهض بلال لفتحه..

إنه كامل أحد عمال المكان هنا وقد أحضر الطعام قائلاً

- لقد أتيت منذ ساعة ولكني لم أجد أحدًا

ابتسم بلال قائلًا

- آسف لم أكن هنا..

يبتسم كامل: لا عليك

******

يمضي اليوم ثقيلاً ما بين الأريكة والنافذة والهاتف وذلك لأن بلال لا يجد ما يفعله فالدراسة لن تبدأ إلا بعد ثلاثة أيام وأمامه متسع من الوقت الذي قد يكون كفيلاً بجعله يشعر بالملل.. يأتي الصباح فيفتح بلال النافذة المطلة على ذاك العالم الجديد، يرمق بعينه أحد

النوادي القريبة منه.. فيقرر الذهاب إلى هناك وإفناء بعض الوقت في ممارسه الألعاب الرياضية..

*****

وأمام بوابه النادي الضخمة يقف بلال ليري مبنى شاهق الارتفاع، مُحاطٌ بسورٍ ضخم على يمينه مساحة كبيرة لملعب للركض وفي اليسار يوجد مقهى يجلس فيه بعض الأشخاص.. فأكمل سيره إلى الداخل حيث صالة الألعاب الرياضية ثم توجه إلى المدرب سامح ليخبره عما يريد فأخذ به إلى صالة التدريب المبدئي.. قائلاً

- هنا بدايتك.. ستجد بعض الألعاب لتقويه الجسد وبناءه، ويمكنك البدء تدريجياً برفع الأثقال إن أردت.. ثم تركه وغادر..

خرج المدرب من صالة التدريب تاركًا بلال في وسطها حوله مجموعه من الشبان تبدو عليهم القوة بأجسادهم الضخمة ينظرون إليه بسذاجة فحاول تجاهلهم وهو يستشعر داخلياً نبذهم الذي كظموه بداخلهم له.

مضت ساعتان وهم لازالوا يحدقون إليه حتى انتهى بلال من تمريناته ثم خرج مغادرًا، ولأنه سريع الخطى فقد ارتطم أثناء سيره بأحد المارة على إحدى أرصفه الطرق فيسقط الرجل أرضاً فيسرع بلال لمساعدته على النهوض وهو يعتذر..فإذا به رجل ضعيف هزيل برزت عظام وجنتاه لتفضح فقره الذي يحاول إخفاءه، يحمل بيده بعض الزهور ويتجول في المدينة لبيعها وكسب قوت يومه...أمسك بلال بيده

ثم أجلسه على إحدى المقاعد الموجودة على الرصيف وهو يزيل التراب عن ملابسه التي مزقتها حرارة الصيف وأمطار الشتاء، يجمع بلال الزهور التي سقطت ثم يقترب من الرجل جاثيًا على ركبتاه لامع العينان آسفًا وذلك بعد أن لاحظ دمعه تكاد تتسرب من عين الرجل ثم جلس بجانبه

- أنت بخير؟!

رد الرجل بضعف

- أجل يا بني

نظر إليه بلال مبتسماً ثم ربت على كتفه قائلًا

- بكم تبيع كل تلك الزهور؟!

فنظر الرجل إلى بلال قائلًا

- خمسون قطعه نقدية

أدخل بلال يده في جيبه ثم أخرج الأموال وأعطاه إياها ثم ناوله العجوز الزهور وهو يبتسم، تناولها بلال بيده ثم استنشق رائحتها التي عطرت أنفاسه وملأت رئتاه عبيراً ثم عاد بنظره إلى الرجل قائلًا

- إنها أولى المرات التي أرى فيها جمال يبيع جمالاً

ابتسم الرجل ثم نظر إلى ملابسه الممزقة وتنهد بذكرى أيامه المؤلمة في صمت، جلس بلال يتحدث إليه حتى نظر إلى ساعته فوجدها قد تخطت الثانية عشرة فاستأذن العجوز حين وجد الوقت قد تأخر ثم تركه مغادرًا.

بعد أن غادر بلال تجئ عين العجوز على حافة المقعد فيرى باقة الزهور لاتزال في مكانها، فحملها بين يداه ووقف في منتصف الطريق ينظر يمينًا ويساراً يبحث عن بلال علّه يجده ليعيد إليه الأزهار لكنه لم يجده، ولكنه لم يعلم أيضًا أن بلال تركها عمداً

******

أصبح بلال كل يوم يتردد على النادي ويمضي فيه معظم وقته هرباً من الملل الذي يصيبه أثناء جلوسه بمفرده في مبنى ميشاند

في أحد الأيام وبينما كان يسير مسرعاً تجاه صالة التدريب حتى استوقفه صوت يناديه من خلفه، تباطأت خطواته حتى توقف ثم التفت إلى مصدر ذاك الصوت ليجد فتاة يبدو من مظهرها أنها في نفس سنه أو أصغر بقليل..

شعرها بني طويل يمتد حتى أسفل خصرها.. بشرتها قمحية تنظر إليه بعينها ذات اللون الرمادي قائلة

- إحذر من أولئك الذين بالداخل

فرد بدهشة

- لماذا؟!

فقالت وقد انخفض صوتها

- الأفضل لك أن ترحل

نظر إليها بلال نظره الذي لا يفهم من الأمر شيئاً.. وما إن هم بالتحدث ثانية حتى تركته وغادرت وتقول بعد أن أدارت إليه ظهرها

- لقد نهتك

توقف بلال بعضاً من الوقت يردد عبارتها باستغرابٍ

" نهتك!! " ثم قال بصوت قد ارتفع غضباً

- لن أرحل...!!

ثم تركها وسار حتى مكان تبديل الملابس حيث انتهى سريعًا ثم خرج إلى نفس المكان الذي يقوم فيه بالتدرب كل مره وحيث هؤلاء الشبان...

طبع أولى خطواته بداخل المكان، فأصبح الجميع يصوبون أنظارهم إليه، أعينهم تكاد تخترقه.. لونها أحمر وكأنها قد بلغت من الغضب مداها، حاول تجاهلهم ككل مره ولكن تجاهله لهم لم يفلح...اقتربوا منه فأصبح قلبه يرتجف داخليًا رغم ثبات مظهره خارجياً.. قام أحدهم بالصراخ في وجهه فاضطرب جسده وصاح

- ماذا تريد؟!

لم يتحدثوا إليه ثم هموا بضربه وهو يحاول أن يتفادى ضرباتهم دون أن يدري بأي سبب لِمَا يفعلونه.. أصبحت ضرباتهم تتوالى على رأسه حتى فقد وعيه ولم يشعر بعدها بشيء..

*****

فتح بلال عيناه مره أخرى حين استشعر ألماً في رأسه يبدو أن أحداً ما يحاول تضميد جروحًا أصابته.. يحاول بلال تدقيق النظر ليرى من ذاك الشخص فإذا به يراها مره أخرى فقال بصوت ضعيف

- أهذه أنت؟

فنظرت إليه بحزن على ما حدث له قائلة

- أخبرتك أن ترحل

فسألها بصوت قد اضطرب ألما

- ماذا حدث؟

فأجابت بهدوء

- لا شيء.. لا شيء، الأمر بسيط

*****

من شده الألم الذي كان يشعر به أغمض بلال عيناه بعدها ليغفو بعد أن أعطاه الطبيب حقنه مسكنه، كلما فتح عيناه يشعر بدوار في رأسه ويرى الأشياء مشوشة تهتز أمامه.

أصبح يستفيق ويغفو حتى استطاع أن يسترد وعيه تماماً ليجد نفسه نائماً على سرير في غرفه كل شيء فيها باللون الأبيض.. يسأل من حوله أين أنا؟ فتخبره ممرضه

- أنت في المستشفى

انتفض جالساً من السرير فاستشعر دواراً يصيبه وألم رأسه يزداد وكأن جرحه غائر، فعاد ليستند برأسه على الجدار الملاصق لسريره حين استشعر أيضاً ضربات قلبه تخفق بشدة.. وعاد ليسأل

- من أحضرني إلى هنا؟!

فأجابت الممرضة

- إنها فتاة تدعى ندى

فأمسك برأسه الذي يزداد صداعًا ويحاول تذكر ذاك الاسم ولكنه لم يتوصل لأي شيء، فنظر إلى الممرضة قائلاً

- ومن تلك؟!

فأجابت

- نصف ساعة وستأتي

وبينما لازالت الممرضة تتحدث حتى دلفت ندى إلى الغرفة قائلةً

- كيف حاله الآن؟ ولم تكد تكمل سؤالها حتى وجدته جالساً على سريره ينظر إليها

- أهذه أنتِ؟!

فنظرت إليه لتجده يمسك برأسه فقالت

- كيف حالك؟ أتشعر بشيء؟!

فأجاب

- أشعر بكل شيء...؟! لماذا جئتَ بي إلى هنا؟، وفى منتصف حديثه يشعر بشيء ما قد سرى في رأسه فصرخ من ألمه الذي يزداد، فحاولت تهدئته وهي تنظر إلى الممرضة قائله

- أحضروا الطبيب.. يبدو أنه لازال يتألم

فقالت الممرضة

- لقد أعطيته أربع حقن مسكنه حتى الآن، لا أستطيع أن أزيد ولا حتى الطبيب يمكنه فعل ذلك..

فنظرت ندى إليها ثم قالت بقلق

- وماذا سنفعل الآن؟

ردت الممرضة

-اتركيه بعض الوقت حتى يبدأ مفعول آخر مسكنٍ أخذه. يمكنك الذهاب الآن وسأتابع حالته..

(3)

غادرت ندي المستشفى تاركةً بلال الذي لا تدري ماذا تفعل له، تنهى عملها ثم تعود إليه في اليوم التالي وكلها أمل بأن تراه قد تحسن..
تفتح باب غرفته لتجده واقفاً بجانب سريره ينظر عبر النافذة إلى الخارج ورأسه لازال مضمدًا.. فتقول مبتسمة
- كيف حالك الآن؟
التفت إليها فاستشعر دواراً يصيبه مرة أخرى، فجلس على السرير قائلاً
- أنا بخير.. بخير
فاقتربت منه ثم قالت
- يبدو أنك لازلت متعباً
فأجاب
- لا.. لا سأخرج اليوم.. الطبيب أخبرني بذلك
فنظرت إليه بسعادة
- حقاً...!!
فعاد لينظر عبر النافذة قائلاً
- ماذا حدث...؟ ولماذا أنتِ بالتحديد من جئتِ بي إلى هنا؟ ثم ومن أنتِ؟!

فابتسمت قائلة

- سأخبرك بكل شيء ولكن يجب أن تخرج من هنا وتتعافي أولاً، ثم وضعت بعضاً من الزهور التي أحضرتها بجانبه وتابعت

- سأتحدث إلى الطبيب وآتيك

سارت بضع خطوات في الغرفة تجاه الباب ثم همت بفتحه لتخرج، فاستوقفها صوت بلال قائلًا

- على كل حال شكراً لكِ..

فابتسمت دون أن تريه وجهها ثم غادرت

*****

غادر بلال هو الآخر في نفس اليوم المستشفى بعد أن وصف له الطبيب بعضًا من الأدوية التي سيتناولها حتى يشفى، غادر المكان ونفس الأسئلة لازالت تدور في رأسه، وصل إلى مسكنه في مبني الجامعة ثم دلف إلى غرفته وأغلق ستائر المكان لتسكن ضوضاء عقله وينعم ببعض الهدوء والظلام..

عل صداع رأسه يتوقف لبعض الوقت، تناول أدويته ثم غط في نوم عميق. لم يستيقظ إلا على صوت هاتفه

- السلام عليكم

- وعليك السلام أبي

- كيف حالك يا بلال؟

فأجابه بلال

- بخير.. بخير.. ما الأمر؟

فقال كريم

- لا شيء يا بني.. كل ما في الأمر أن والدتك تريد الاطمئنان عليك

غاب صوت والده لتتحدث والدته

- بلال.. كيف حالك؟

فابتسم قائلًا

- أنا بخير يا أمي.. كيف حالك أنتِ وأبي وحنين؟

فأجابت

- نحن جميعاً بخير

عدة دقائق وانتهت المكالمة سريعًا وبلال يبتسم، ثم يتساءل

- أحقاً هم يشعرون بي؟! ثم ضحك قائلاً

- صدق حقا من قال هذا، إن العائلة هي الكنز الذي يمتلكه الكثيرون ولكن لا يشعرون به

*****

شعر بلال بتحسن في اليوم التالي، وبعد غروب الشمس قرر الذهاب إلى النادي حيث توجد ندي ليتحدث إليها فيما حدث معه، فلن يهدأ له عقل حتى يجد إجابه لكل تلك الأسئلة التي تدور في رأسه..

فتح الباب ليذهب خارجاً فإذا به يري المفاجأة التي أصبح معتاداً عليها...إنها تلك الرسالة التي لا يمل صاحبها من إرسالها إليه كل يوم،

نظر إليها بلال ولم ينحني لالتقاطها ككل مره.. ففي تلك المرة ابتسم مرهقاً ثم تركها كما هي وغادر..

وصل إلى النادي بعد عدة أمتار من أمام مبني ميشاند، دخل إليه ثم اخذ يبحث عن ندى بين الموجودين حتى رآها واقفة أمام أحد مباني النادي تتحدث إلى أحدهم وحين لمحت بلال ينظر إليها من بعيد عملت أنه آت إليها فقامت بإنهاء حديثها سريعاً ثم سارت نحوه قائلة

- كيف حالك اليوم؟ يبدو أنك بخير

فابتسم قائلًا

- إنني كذلك

جلسا في مقهى النادي أسفل مظلة كبيره يحتسون القهوة وبدأ بلال بالحديث قائلاً

- لم تجيبي عن أسئلتي بعد!!

فابتسمت قائلة

- حسناً.. ثم نظرت بعيداً وتابعت

- إن هؤلاء الشبان لهم قصه مأساويه بعض الشيء.. ثم صمتت قليلًا وأكملت وهي تنظر إليه

- إنهم يأتون إلى هنا منذ سنوات، في أحد الأيام جاء متدرب جديد إلى نفس الصالة التي يتدربون بها، ومع الوقت، استطاع أن يصبح أقوى منهم واستحوذ على الألقاب والأسماء والحب بين الجميع.. اشترك في مسابقات كثيرة واستطاع الفوز بها.. حتى إنه قد تفوق عليهم..

وللأسف. منذ ذاك الحين وهم لا يسمحون لأي أحد بالتدرب معهم. يريدون أن يتفردوا بالقوة وحدهم ولا يحبون أن يشاركهم فيها أحد، وبما أن هذا هو أكبر نادي رياضي بالبلاد فلا أحد يستطيع تخطيهم

فتنهد بلال قائلا

- مرضي نفسيون

فأردفت

- شيء كهذا.. لديهم مرض نفسي ضد أي شخص يدخل منطقتهم، وخشيتهم من أن يصبح بطلاً ويتفوق عليهم يجعلهم لا يملون من محاولة إيعاده

فقال

- ولماذا لا تتخلصون منهم؟!

تنهدت ثم نظرت بعيداً وأجابت

- لا أحد يستطيع منعهم، إنه نادٍ حكومي ومن حق الجميع الاشتراك فيه والحضور..

صمت بلال قليلاً وكأنه يفكر ثم قال

- ولماذا لا تخبرون أحدا بما يفعلوا؟

فردت

- لأننا لا نملك دليلاً قاطعًا ضدهم، ثم إنهم في كثير من الأحيان يستطيعون الكذب للفرار من العدالة

صمت بلال قليلاً ثم ارتشف بعضاً من القهوة وسألها

- حسنا لماذا أخذتي بي إلى المستشفى إذاً؟!

فقالت

- لا أستطيع أن أري شخصاً حدث له كل هذا ولا أساعده.. حالتك كان يرثي لها..

فصمت قليلاً ثم نظر صوب عينيها قائلاً

- الحقيقة يا ندي.. أخبريني بالحقيقة، لا تحاولي اقناعي أن هناك أحد في هذه البلاد يقدم مساعدة من دون مقابل.. ثم إنك لا تعرفينني.

فصمتت قليلاً ثم نظرت إليه قائلةً

- الحقيقة أن والدي هو مدير هذا المكان.. وفي نفس ذاك اليوم الذي أُصبت فيه.. كان والدي في سفر إلى بلاد أخرى ووعدته أن أُحافظ على النادي في غيابه، وإني أستمسك بالوعود

فنظر إليها مبتسماً

- شكراً لك مره أخرى.. يوماً ما سأرد لك معروفك هذا

فابتسمت إليه قائلة

- أراك تمضي معظم الوقت هنا

فضحك قائلاً

- ستبدأ الدراسة غداً ولن أتردد على هنا كثيراً

فقالت

- أجل أجل تذكرت، أنا ايضاً سأبدأ عامي الأول بالجامعة

فاندهش

- حقا!! بأي كليه تدرسين؟

فأجابت

- تكنولوجيا المعلومات.. وأنت؟!

فأجاب: كليه العلوم

فسألته: ألا تعمل؟!

فأجاب: لا أتيت هنا للدراسة فقط

فصمتت قليلاً ثم عادت لتتحدث قائلة

- جميع من في هذه البلاد يعملون، حتى نحن الطلاب. نعمل بجانب دراستنا.. ثم ارتشفت بعضاً من قهوتها وتابعت

- يجب على الإنسان أن يستغل وقته استغلالاً كاملاً ولا يستهلكه في أشياء تفنيه إلا إذا كانت نافعة..

فكر بلال في حديثها قليلاً ثم قال

- معكِ حق. ولكني أحب أن أترك الأمور تسير في مجراها ولا أستعجل حدوث الشيء قبل أوانه. فلكل مرحله من حياتنا أوان..

فقالت

- لك مطلق الحرية ولكن!! فكر في الأمر

فقال مبتسماً

- حسناً، سأفعل. ثم نهض من كرسيه قائلاً:

- سأرحل الآن

فنظرت إليه قائلةً

- حسناً.. اعتني برأسك جيداً

ضحك بصوت قد ارتفع ثم غادرها وهو يبتسم، يسير عائداً إلى مسكنه يفكر في الغد.

فالغد هو أول يوم له في الجامعة وسيبدأ بعدها في الدراسة التي تستهلك منه مجهوداً ووقتا..

أستيقظ باكراً بعد أن مضى الليل سريعًا وأشرقت الشمس. يفتح بلال نافذة الغرفة لتُضاء بشعاع الشمس الذي جعل قلبه مفعما بالأمل. فدائماً ما تخبرنا أشرقه الشمس بأن اليوم سيكون رائع...

فتح بلال الباب للمغادرة ولكنه عاد ليرى نفس الرسالة مره أخرى، فيلتقطها من أسفل قدميه ويهم لفتحها ولكنه يتراجع بغضب قائلاً

- ألا تكف إدارة ذاك المبني عن إرسال تلك الرسائل كل يوم.. يأتي صوت من خلفه

- الطعام سيدي

يلتفت بلال

- كامل.. أهذا أنت؟ جيد أنك هنا

يرد كامل بقلق

- أهناك خطب سيدي...؟

يرد بلال وقد ازداد الضيق في صدره

- أتمنى أن تكف الإدارة عن إرسال تلك الرسائل كل يوم

ينظر إليه كامل في دهشة

- أي رسائل؟!

يمسك بلال بالورقة ويضعها أمام كامل الذي أصبح ينظر إليها ويقرأ مضمونها ثم رفع نظره قائلاً

- نحن لا نرسل مثل هذه الرسائل لأحد

ينظر إليه بلال شاخص العينان

- ماذا تقصد؟!

يرد كامل

- تلك الرسائل ليست من إدارتنا

يقشعر جسد بلال ثم يسأله في عجب

- إذاً من الذي يضعها كل يوم أمام غرفتي؟!

يصمت كامل ولا يجيب، ثم يهز رأسه نافياً علمه بشيء فيزداد قلق بلال

- كيف لا تعلم؟ أليس لذاك المبني أمن يخبركم من يدخل إليه ومن يخرج منه؟!

فيرد كامل

- إن خدماتنا ممتازة، ونحن لم نلحظ أي شيء غريب هنا.. ثم يصمت قليلاً ويتابع

- تفضل طعامك سيدي

يرد بلال: حسناً.. شكراً لك

*****

يغادر بلال مبنى ميشاند متجهاً إلى الجامعة بعقل تشوبه التساؤلات.. فعقله لم يعد نقياً صافياً كما كان من ذي قبل.. يبدو أن هذه البلاد ليست رائعة كما أخبر والده..

وصل بلال إلى الجامعة التي كان لها شكلاً آخر قد أنساه كليًا ما يفكر به عقله، كانت مبانيها حديثه رغم قدم تاريخها وعراقتها.. واللون الأخضر الذي ساد بأرضها قد استوطن قلبه ودمر النظرة السوداء التي كان ينظر بها للعالم ها منذ دقائق، فالطبيعة هي الجمال الأعلى القادر على تهدئه النفس وصفاء روحها.. ورغم ازدحام الجامعة بالطلاب الوافدون إليها من كل مكان، إلا أن اتساعها جعل من الأمر عادياً..

كان اليوم الأول رائعاً في الجامعة. أنهى بلال محاضراته مبكراً ثم خرج عائداً إلى مسكنه، وبينما هو يسير في طريق عودته إذا به يرى ندى تسير أمامه بعدة أمتار.. أسرع في خطاه حتى لحق بها، ثم قال وهو يسير بجانبها

- كيف حالك؟

التفتت إلى مصدر الصوت قائلة

- من؟ بلال!! أنا بخير.. كيف حالك أنت؟

فنظر إليها قائلاً

- جيد أنني وجدتك هنا.. كنت سآتي إليكِ

فردت بقلق

- أهناك خطب ما؟!

فنظر أمامه وهو يسير ثم تنهد قائلًا

- أريد التحدث إليكِ

فأومأت برأسها موافقة

- حسنا لنجد مكانًا

فتوقف عن سيره ثم قال

- جِدي أنتِ.. أنا لا اعرف أي شيء هنا..

فنظرت إليه ضاحكة ثم أخذت به إلى أحد المقاهي الهادئة التي تحب الذهاب إليها

- ما الأمر؟ وما كل هذا!! ثم نظرت إلى رأسه الذي لازال مضمداً وتابعت

- هل عاد الجرح ليؤلمك ثانيةً؟

فقال بحزم

- لا...بل أريد أن أؤلم من جرحني؟

نظرت إليه بغرابه قائلةً

- ماذا تقصد؟!

فتنهد ثم قال موضحاً

- أقصد شبان صالة الألعاب الرياضية.. سأقتص لنفسي وأخلصك أيضاً منهم، مثل أولئك يجب أن يوضع لهم حداً

نظرت إليه بلهفه

- حقا!! كيف هذا؟ وماذا ستفعل!!

فأشار إليها بيده قائلاً

- اقتربي.. ثم بدأ يحكي لها خطه قد أحكم وضعها

*****

(4)

في اليوم التالي وبعد أن أُغلق النادي كانت ندي واقفة أمام المقهى الذي جلسا فيه بالأمس تنتظر بلال الذي كان في طريقه إليها.. عدة دقائق كانت كافيه بأن يصلا هما الاثنان حتى بوابه النادي تلك الشاهقة الارتفاع..

طبعا أولى خطواتهما داخل حدود النادي بحذر شديد يلتفتان يمينا ويساراً ولكن صوتاً ما قد استوقفهما، نظرت ندي خلفها لترى هيثم وهو أحد أفراد شرطة الأمن التي تحرس بوابة النادي ليلاً وحين اقتربت منه ورآها قال بدهشة

- من؟ ندي!!

فردت مبتسمة

- أجل إنها أنا.. لقد نسي ذاك الفتى شيئاً مُهِما بالداخل ويريده الآن، فقط سندخل لإحضاره

فأومأ هيثم برأسه موافقاً

- حسناً تفضلا

بعد أن سارا بضع خطوات بالداخل نظر إليها بلال ثم ردد عبارتها مره أخرى قائلًا:

- ذاك الفتى؟

التفتت إليه ضاحكة ثم أخفت ضحكاتها ونظرت أمامها ثم تابعت السير، وبعد عدة خطوات دخلت ومعها بلال الذي كان بيده حقي صغيرة يحمل بداخلها بعض كاميرات المراقبة..

استخدمت المفاتيح التي حصلت عليها من مكتب والدها ثم قامت بفتح صالة الألعاب الرياضية...ولم يلبثا سوى عدة دقائق حتى انتهيا من مهمتهما سريعاً وخرجا

وفي طريق خروجهم ينظر إليها قائلًا

- مثل ذاك المكان يعد حديثاً لماذا لا تضعون به كاميرات للمراقبة

فردت قائلةً

- إنهم يحطمونها ثم يَدّعون أنهم لا يعلمون شيئاً عنها

رفع بلال حاجبًا عن الآخر ثم قال

- عجباً...!! جيد أننا وضعناهم في أماكن غير مرئية هذه المرة

عند البوابة تلوح ندى لهيثم مبتسمة

- شكراً لك

بعد أن خطيا عدة خطوات خارجاً التفتت إلى بلال قائلة

- وماذا بعد؟!

فتوقف عن سيره ثم نظر إليها وقال بحزم

- مثل أولئك أقوياء للحد الذي يمنعنا من مواجهتهم.. يحتاجون فقط لفكره ذكيه.. فالذكاء أحياناً قد يفوق القوة.

سنبتزهم بنقاط ضعف

فقالت ندي

- إنهم لكاذبون، يمكنهم نكران أي شيء

فتنهد ثم قال معقباً

- لا تقلقي

******

عادت ندى إلى منزلها وعاد بلال هو الآخر إلى مبني ميشاند حيث استلقي على سريره محدقاً في نجوم السماء التي يستطيع رؤيتها جيداً عبر زجاج النافذة.. يلقي إليها كل يوم أُمنيه، ويأمل أن تتحقق أمانيه يوماً، يغلق عيناه فيغفو ويغادر عالمنا إلى عالم الأحلام التي تأخذه حيث يريد دون أن يحرك ساكنا..

ويأتي الصباح بعد ليل طويل قد أشبعه من أحلامه فينهض لغسل وجهه بماء بارد قد أرعش جسده ليعود إلى الواقع، ثم ارتدى ملابس ثقيلة حين أحس بقشعريرة باردة تسري في جسده، وخرج من غرفته ثم وقف أمام المصعد..

التفت خلفه ليري تلك الرسالة اليومية التي يجدها ملقاة عند بابه، وحين لمحها تنهد من ضيق أصابه ثم تجاهلها كما اعتاد أن يفعل كل يومٍ وغادر

*****

يصل بلال إلى الجامعة.. ذاك المقصد الوحيد الذي سافر تلك البلاد لأجله.. ينتهي من محاضراته بعد يومٍ مرهق ثم يذهب إلى أحد المطاعم لتناول الغداء، فقد سئم من مبني ميشاند وكل ما يقدمه من خدمات.. يجلس في أحد زوايا المطعم وحده ينظر عبر زجاجه إلى ذاك الشارع الهادئ يتأمل المارة وحركه السير ثم يرى طفلاً صغيراً

يمسك بيد والدته ويعبران الشارع تجاهه ويلمحه الطفل فيبتسم له بكل براءة، فيبتسم بلال هو الآخر ويشعر بجمال يملأ صدره.. ولكن عقله لازال سابحاً في بحار الفكر، سمع صوتاً يناديه

- بلال...!!

فألتفت يبحث عن مصدر الصوت فإذا به خالد فيتحدث بدهشة

- خالد!! أين أنت يا فتى؟ لم أرك منذ مدة.

فينظر خالد إلى شاب واقفاً معه يبدو أنه صديقه ثم يقول

- أجل.. لقد تركت مبني ميشاند وذهبت للسكن مع إيهاب.. المكان هناك أفضل.. ثم ينظر إلى رأسه التي لاتزال مضمده ويسأله

- ما سبب هذا الجرح الغائر في رأسك؟

يبتسم بلال ثم يقول

- لا تقلق إنه جرح عابر، ثم يصمت قليلاً ويعود ليسأله

- أهناك سبب ما لرحيلك عن ذاك المبنى؟

فيرد خالد قائلاً

- لا.. كل ما في الأمر أنني كنت وحيداً جداً في ذاك المكان.. وأنت تعلم أنى لا أُحب الوحدة، لقد بحثت عنك كثيراً قبل رحيلي ولكني لم أجدك.. أخبرني أحدهم أنك غبت لفترة.. ثم صمت قليلاً وكأنه استشعر شيئاً ما

- بلال!! أأنت بخير؟!

ينظر إليه بلال في شرود ذهن

- أجل، أنا بخير.. أجلس

قام خالد وإيهاب بالجلوس مع بلال يتحدثون في أُمورهم وعن تلك المدينة التي هم بها والأماكن التي ذهبوا إليها والجامعة، ومن بين حديثهم الذي ملأ المكان رن هاتف بلال قاطعا إياه، إنها ندى!!

ضرب بلال رأسه بيده وكأنه قد نسي شيئاً هاماً..ولكنه سرعان ما تذكره الآن..

استأذن من خالد وإيهاب بعد أن حصل على رقم هاتفه وغادرهما..

*****

عده دقائق وها قد وصل بلال إلى النادي حيث ندى التي كانت تسير أمام مبناه ذهاباً وإياباً تضرب بقبضتها كف يدها الأخرى وتتمتم بكلمات.. ثم تتوقف وتنظر للطريق وتعود لحركتها القلقة مره أخرى حتى رأته قادماً من بعيد فهدأت بعض الشيء ولكن توترها لازال طاغياً عليها فتتقدم عدة خطوات نحوه قائلة في قلق

- لماذا تأخرت هكذا؟!

فرد بلال

- آسف كدت أنسى

فنظرت إليه بلوم قائله

- بل إنك قد نسيت

ابتسم بلال ثم نظر إليها قائلًا

- المهم أني أتيت

تبتسم ندى ثم تقول بحزم

-إذًا هيا.. إنهم بالداخل

سارا معاً حتى باب صالة الألعاب الرياضية، تقدم بلال ثم اقترب من الباب وأمسك مقبضه في قلق.. ثم عاد ليلتفت خلفه ناظراً إلى ندى.. تبدو على ملامحه علامات القلق والاضطراب. ثم يعود لينظر أمامه ويشعر بقلبه يخفق بشدة.. فيتغاضى عن كل هذا ثم يغمض عيناه ويفتح الباب دون أن يستمع لمخاوفه ويدخل، وفي لحظه دخوله نظر تلقائيا لوجوه كل الموجودين فوجدهم يحدقون إليه بنفس نظرات البغض التي كانوا يرمقونها بها من قبل، يتنفسون الشر وتجري مع دمائهم روح الانتقام في شرايين قد ضاقت من الحقد. لازال قلبه ينبض بقوة.. فحاول التغلب على كل ما يشعر بتجاهلهم كما يفعل كل مره وممارسه بعض تمارين الإحماء ورفع الإثقال..

بينما ظل أحدهم يحدق إليه بعينين يكتظ فيهما شرايين الشر الحمراء.. يحمل بلال بعض الأثقال التي يحملها بكل قواه فتنتفخ عروقه وينبت فوق جبينه عرق كلما جففه وتتتابع ضربات قلبه من شدة القلق والمجهود معاً، عده دقائق ولم يستطيع ذاك الشاب تحمل رؤية بلال أكثر فنهض يسير متجها إليه

- ألم أُحطم رأسك هذا من قبل...؟ لماذا عدت إلى هنا؟!

فنظر إليه بلال وهو يقول في نفسه

- سفيه وسأقتص منك، ثم يعلوا صوت ذاك المتعجرف من جديد

- لماذا لا تجيب؟!

رفع بلال رأسه عالياً يمثل الثبات وداخله مزعزع

- لماذا تفعل هذا؟ وأي فائدة تجني؟!

فأجاب

- المكان هذا لنا.. ولا نريد أن يشاركنا فيه أحد.. وإني أُحذرك مره أخرى، إن أتيت إلى هنا مجدداً سنفعل بك كما فعلنا من قبل.. ثم ضربه بقبضته في رأسه بقوة فصرخ بلال

- توقف أيها الأبله.. إن الجرح لم يلتئم بعد

فضحك مستهزئًا

- جيد.. أريدك أن تتذكر هذا الألم جيدًا كي لا تعود

صمت بلال قليلاً ثم رد قائلاً

- وماذا إن أتيت إلى هنا مجدداً؟ أليس من حق كل المتواجدون في اوباكو أن يحظوا بخدماتها؟!

غضب الشاب ثم تقدم إليه

- يبدو أنك لم تتلقن الدرس جيدًا.. ثم أغلق قبضه يده واقترب منه أكثر يريد ضربه حتى صاح أحدهم فتوقف، ينظر بلال خلفه ليرى الباب قد فتح ويقف المدرب سامح عاقداً حاجباه

- لقد رأيت كل شيء.. والآن معي دليل إدانتكم.. لن تستطيعوا الكذب ككل مرة، ثم اتصل بالشرطة فما لبثوا سوى عدة دقائق حتى تم القبض عليهم أجمعين

تقف ندى خلف والدها سامح وتبتسم إلى بلال الذي أدار ظهره لها ثم ضحك منتصراً بقوه بعد أن نجحت خطتهما...

وضع كرسيًا ثم وقف عليه ليصل لإحدى كاميرات المراقبة التي وضعها بالأمس ليُخرج منها فلاشه صغيرة تحوي تسجيلًا لكل ما حدث...ثم ذهب خارجاً حيثما كان رجال الشرطة يقفون ممسكون بهؤلاء الشبان، بينما نظر إليهم بلال وهو يبتسم منتصراً ثم قال

- أظن أن البقاء الآن ليس للأقوى كما هو مرسخ في أذهانكم.. ثم قام بتسليم التسجيل إلى الشرطة وغادرهم..

*****

منذ ذاك الحين وقد هدأ المكان تماماً وأصبح الجميع يتوافدون عليه دون خوف أو قلق أو حتى تهديد من أحد...وبلغت سعادة ندى ووالدها سامح مداها حين استطاعا التخلص من هؤلاء الطاغين

******

عاد بلال إلى المكان الذي يسكن فيه، وتمر الأيام وتتوالى ويمضي شهرٌ على بداية الدراسة يحاول التركيز في مذاكرته وليس شيئاً آخر.. يخرج كل صباح إلى جامعته ثم يعود آخر اليوم منهكا يكمل مذاكرته حتى يغلبه النعاس ويغفو على مكتبه..

وفي صباح بارد.. خرج بلال من غرفته متجهاً إلى المصعد يقدمان متثاقلتان ليذهب إلى الجامعة حتى تعثر بكومة من الأوراق كادت أن

تسقطه أرضاً.. فنظر إليها ثم تنهد من ضيق ملأ صدره، إنها نفس الرسائل التي يراها كل يوم..

يهبط بلال إلى الطابق السفلي حيث حكيم (مسئول المبني) فيدخل غاضباً إلى مكتبه

- من حقي الآن أن أعرف.. من يرسل لي هذه الرسائل، ثم من أين تأتي؟

(5)

نظر إليه حكيم ثم إلى كومه أوراق في يده وسأله

- ما هذا؟!

فرد بلال غاضباً

- أتسألني ما هذا ؟!، أم أنا الذي يفترض بي أن أسألك، أي منا أحق...؟!

نهض حكيم من كرسيه

- اهدأ يا بلال سنعرف حتماً من أين تأتي

نظر إليه بلال نظرة يشوبها القلق قائلًا

- أين أمن المبني؟ أين كاميرات المراقبة؟! وأين الإدارة؟!!

سار حكيم عده خطوات في غرفه مكتبه ثم التفت إلى بلال

- منذ أن أخبرني كامل بهذا وقد كثفت مراقبتي للمكان. ولكني لم أجد شيئاً. حتى تسجيلات كاميرات المراقبة. لم أري فيها أحداً يأتي كل يوم في الصباح الباكر ليترك رسائل لأحد

ظل بلال واقفًا في مكانه دون أن يلتفت إليه

- ماذا تقصد؟!

اقترب منه حكيم واضعاً يده على كتفه قائلاً

- ماذا يوجد في تلك الرسائل؟

يرد بلال قائلًا

- إن ما قرأت منها يخبر دائماً أن مرحبا بك في أوباكو، ولكني لم افتح باقي الرسائل منذ مدة..

رد حكيم بهدوء

- حسنا. يجب أن تفتح باقي الرسائل وتري ما فيها. ربما مصدرها لن يكون سوي صديق لك فحسب..

رد بلال

- أنا ليس لي أصدقاء هنا. ولا اعرف سوى صديق واحد ولكنه غادر المبني بعد مجيئي بيومين

حاول حكيم تهدئته حين لاحظ أعصابه مضطربة

- حسنا يا بلال اهدأ الآن وسنبحث في ذلك

التفت بلال إليه قائلًا

- سأمنحك أُسبوعا آخر لتكثف مراقبتك أكثر وتخبرني من هو!!

هز حكيم رأسه موافقاً ثم تركه بلال مغادراً إلى غرفته

*****

في الطابق السابع والعشرون يجلس بلال على مكتبه وأمامه مجموعه الرسائل كلها، ثم أخذ يرتبها حسب التاريخ والأيام ثم بدأ يفتحها واحدة تلو الأخرى. وكلما زاد في القراءة تتسع عيناه أكثر فأكثر

وضربات قلبه تزداد بنبضات تطرق صدره بشدة.. عيناه تقرأ الرسالة ثم يسحب من خلفها ليري ما بها

- " أهلا بك في مبني ميشاند الثالثة فجرًا "

- " مرحبا بك في حديقة جليبار التاسعة والنصف صباحًا "

- " أهلا بك في النادي الرياضي السادسة صباحًا "

- " زيارة رائعة إلى مقهى اونو الرابعة عصراً"

وهكذا. كل مكان ذهب إليه بالوقت والتاريخ مسجل في تلك الرسائل، يكاد يجن. ويتساءل

- هل أنا مراقب؟ إذا ومن يراقبني؟ وماذا يريد مني!!

يستند برأسه للخلف إلى مسند الكرسي الذي يجلس عليه يشعر بالدوار من شده تزاحم الأفكار في عقله. يتشتت فلا يجد مهرباً من كل ما يشعر به. ثم يعود ليتساءل

- حقاً إن حكيم محق.. الأمر لا يتعلق به.. الأمر أكبر من أن يكون كذلك

يصمت قليلاً ثم يحدث نفسه مره أخرى قائلًا

- ولكن كيف يتخطى صاحب تلك الرسائل كاميرات الأمن ويصعد حتى الطابق السابع والعشرون ليوصلها إليّ؟! كل هذا ومن دون أن يراه أحد...؟!

يضغط رأسه بيديه وكأنه يعتصره ليستطيع الوصول لشيء حقيقي وثابت بعيدًا عن كل تلك الاحتمالات والتساؤلات التي لا يجد لها

إجابه، في تلك الليلة لم يستطع بلال مذاكرة شيء أو التركيز. فعقلهُ لازال متأرجحا بين الشكوك والظن في حين كان يبحث عن الحقائق، حاول النوم للهروب من كل هذا ولكن أفكاره لم تكن رحيمة..

ظل مستيقظا إلى وقت متأخر من الليل حتى غفي رغماً عنه من عناء يومه الطويل.

كانت عدد ساعات الليل طويلة جداً حتى عادت الشمس لتشرق متأخرة عن أيّ يوم سبق، خرج بلال من غرفته ذاهباً إلى الجامعة ليجد رسالة جديدة.. كان الأمر مربكاً جدا حين أدرك حقيقة الأمر.. ثم وكيف لمرسل تلك الرسائل أن يخبره بالأماكن التي ينوي الذهاب إليها قبل أن يذهب...؟ هل يقرأ أفكاره؟ أم أنه اخترق عقله ليكشف على كل ما يدور بداخله!!

عدة أفكار وضجيجها كانت كافيه بأن تنشئ في رأسه صداعاً...وصل إلى الجامعة بعقل شارد، دخل قاعه المحاضرات في نفس الوقت الذي كاد أُستاذه أن يبدأ في الشرح. وبعد ساعة ونصف من بدأ المحاضرة إذا بأستاذه يخبرهم أن اختبارات منتصف العام قد اقتربت لم يتبقى سوى شهر واحد وتقام. نصحهم بالاجتهاد في المذاكرة جيدًا هذه الفترة. ثم تركهم وذهب مغادرًا المكان..

*****

خرج بلال من الكلية إلى مقهى الجامعة يحتسي كوباً من القهوة ويتأمل المكان في صمت...يشعر بيد تربت على كتفه فيلتفت

- إيهاب!!

فيرد إيهاب قائلًا

- أعلم أننا لسنا أصدقاء للحد الذي يجعلني أتدخل في حياتك ولكني اشعر أنك لست بخير..

فينظر إليه بلال في صمت دون أن يتحدث. فيتابع إيهاب حديثه

- أرجوك.. إن احتجت شيئاً فلا تتردد في طلبه. أنت صديق صديقي وابن لبلدي وبهذا فنحن أخوه

يبتسم بلال قائلًا

- شكراً لك جدا. ثم يشير بيده إلى كرسي قد وُضع أمامه قائلًا لماذا تقف؟ اجلس

يجلس إيهاب معه ثم يبدأ في التحدث والضحك فيسأله بلال

- أين خالد؟!

فيجيب

- لقد كان هنا قبل دقائق. لا أظنه ابتعد كثيراً

يسأله بلال

- عندما تجد رسالة كل يوم أمام باب غرفتك تتحدث عما ستفعله في يومك قبل أن يحدث، فماذا يعني هذا؟!

صمت إيهاب قليلاً وكأنه مستغربًا ثم أجاب

- لست أدري، منذ متى وتلك الرسائل تأتيك؟

فرد بلال

- منذ مجيئي إلى هنا

يقول إيهاب

- لا تقلق ربما. ثم يصمت قليلاً ويتابع

- الأمر ليس عادياً

ينظر بلال بعيدًا ثم يتنفس بعمق قائلًا

- لهذا فأنا لست بخير. لا أستطيع تجاهلها وفي نفس الوقت تزعجني وتجذبني إليها لحملها حقائق تحدث معي كل يوم

ينظر إليه إيهاب قائلًا

- لا تقلق. سنجد حلاً

ابتسم بلال: أتمنى ذلك

*****

عاد بلال إلى مبني ميشاند ثم صعد إلى غرفته ليلتقط الرسالة ويدخل يفتح النافذة ليتخلل الضوء المكان فجلس على الأريكة ممسكا بالرسالة يمزق غلافها ليصل إلى الورقة البيضاء التي دائماً ما تحمل أسرار يومه ، يقرأها ولازالت علامات الاستفهام تدور في عقله.. من أين للمرسل بكل هذا الكم من المعرفة !!

لو كرس حياته لمراقبتي لَمَا حصل على هذا القدر من المعلومات..

يضع الرسالة فوق كومه الرسائل الأخرى على طاولة صغيرة في أحد أركان الغرفة. ثم ينفض عنه غبار أفكاره وينهض ليغسل وجهه بماء بارد ثم يعود ليجلس على مكتبه. يحاول مراراً التركيز في الدراسة ولكن عقله لا يسمح له بذلك

نهض من كرسيه ثم بدل ملابسه وعاد مرة أخرى للخارج يسير في الطريق وقت غروب الشمس إلى حديقة جليبار.. وهي أول مكان قام بزيارته بعد نزوله أرض أوباكو، جلس في نفس المكان أسفل الشجرة أعلى المقعد الخشبي يراقب الأطفال وهم يلعبون ويبتسم.

يمر بعضاً من الوقت على الجلوس في هذا المكان الذي كان كفيلاً بجعل أفكاره كلها تتلاشى وكأنها لم تكن. فقال وهو يردد في نفسه

- لهذا يحب الجميع مجالسة الأطفال

عدة دقائق نسي فيهما هم الدنيا الذي انزاح من قلبه. يصمت قليلاً ثم يحدث نفسه مرة أخرى قائلا

- إن الحياة أبسط من أن ننظر إليها نظرة تعقيد

عدة دقائق كانت كفيله بأن تغيره تماما. نهض من المقعد متجهاً إلى أحد الأطفال الذين يلعبون ببراءة سِنه، لا يتعدى أربعه أعوام. يجلس على ركبتيه أمامه ممسكاً برأسه بكلتا يديه يرمقه بعينين تلمعان ويحدق في عينيه البنيتين ويسأله بهدوء

- ما اسمك يا صغير؟

أجاب الطفل

- اسمي بلال

ضحك بلال مندهشاً حين سمع هذا، ثم أخرج من جيبه قطعه حلوى وأعطاها للطفل فأخذها منه بسعادة.. وبلال ينظر إليه مبتسمًا ثم طبع قبلة على جبينه قائلًا

- أنتم نعمه الله في أرضه

ركض الطفل نحو والدته يتحدث بصوت قد ارتفع من السعادة وابتهج بينما نظر إليه بلال بابتسامة أكبر ثم تركه وغادر، عائداً من حيث أتى

*****

تدق الساعة معلنه الثامنة مساءاً ويشعر بلال بصفاء ذهنه فيعود للدراسة جالساً على كرسيه أمام مكتبه. وهو يقول في نفسه..

- قريباً سنعلم من هو صاحب تلك الرسائل..

*****

تمضي الأيام وتتوالى وبلال أصبح منشغلاً ما بين دراسته والذهاب للنادي والتجول في البلاد حتى انقضي الأُسبوع الذي كان ينتظر مروره بفارغ الصبر..

دلف مكتب حكيم مسئول مبنى ميشاند

- السلام عليكم

اعتدل حكيم في جلسته مبتسماً

- وعليك السلام. تفضل يا بلال تفضل

جلس بلال على الأريكة الموضوعة بجانب المكتب قائلًا

- هل توصلتم لشيء؟!

طأطئ حكيم رأسه

- للأسف يا بلال، تناوبت مع أمن المبنى لمراقبه المكان ولكن الكاميرا لم تلتقط غريباً

قال بلال في قلق

- كيف...؟ لازالت الرسائل تصلني كل يوم

صمت حكيم حين لم يجد ما يقوله، فنهض بلال من الأريكة وسار بضع خطوات ثم التفت إليه قائلاً

- ومَا الحل إذًا؟!

فرد حكيم

- إن كنت لا تصدقني فبإمكانك المبيت أمام شاشة كاميرات المراقبة تلك والتأكد بنفسك

صمت بلال قليلاً حين شعر أنه ليس على ما يرام..

- أُصدقك. ولكن !!ولكن الأمر ليس جيداً مثيرًا للقلق والشكوك

ثم ترك بلال حكيم وغادر يسمع نداءاته من خلفه ولكنه ظل يسير في شرود نحو المصعد ولم يلتفت، صعد إلى غرفته ثم عاد بحقيبة معلقة في كتفه وممسكاً بعضا من الكتب في يديه يخرج من المصعد ليري حكيم واقفاً أمامه

- إلى أين؟!

ينظر بلال إليه ثم يستمر في خطاه دون أن يتوقف

- سأغادر هذا المكان. إنه ليس آمنا بالنسبة لي

ينادي حكيم ولكن بلال استمر في السير دون أن يلتفت

- آسف..

رأي كامل ما حدث فاقترب من حكيم قائلًا

- أين ذهب؟!

التفت إليه حكيم ثم صمت قليلاً ورد قائلًا

- معه حق، أحدًا ما يراقبه وفي الأمر لغز مَا

*****

(6)

على أحد أرصفه الطرق يقف بلال ممسكاً بهاتفه يجري اتصالاً إلى إيهاب

- السلام عليكم

يرد إيهاب

- وعليكم السلام. من أنت؟

يتنهد بلال ثم يقول بصوت مضطرب

- إيهاب هذا أنا بلال

يرد إيهاب بسرعة

- بلال كيف حالك؟، ما سبب اضطراب صوتك؟!

رد بلال

- أريد أن أراك.. الآن

فسأله إيهاب بقلق

- حسنًا حسنًا أين أنت الآن؟!

******

في مقهى أونو يجلس بلال يحتسي كوباً من الشاي يقربه إلى وجهه ليحظى ببعض الحرارة المنبعثة منه ليتلافى البرد القارص الذي يشعر

بـه.. ورغـم أنـه يمسـك الكـوب محيطـا بـه بكلتـا يـداه إلا أنهمـا ظلتـا متجمـدتين زرقـاء اللـون، ينظـر بعينـين مترقبتين حولـه يشـعر بأنـه مراقـب.. عـدة دقـائق تمـر ويلمـح شخصـان يخرجـان مـن سـيارة أُجـره وقد صوبا نظرهما إليه.. يقتربان منه فتكشـف غشاوة البعد ليراهما بوضوح.. إنهما خالد وإيهاب

اقترب خالد من بلال حتى جلس أمامه قائلاً

- بلال!! ما بك...؟ لقد أقلقتني

يسـمعه إيهـاب الـذي اقترب هـو الآخـر ليجلس معهما فينظر بلال إليه قائلا

- إيهاب. أنت تعلم هذه البلاد هنا صحيح.. إنها ليست أولى المرات التي تأتي فيها إليها

أومأ إيهاب برأسه قائلًا

- أجل. ما الأمر؟

رد بلال بعد أن نظر بعيداً

- أُريد سكناً جديدًا

ينظر إليه خالد قائلاً

- لماذا؟ ما به مبني ميشاند!!

ينظر بلال إلى خالد دون أن يتحدث أو يجيب. بالكاد يستطيع تحمل الأمر فكيف بشرحه. يسأله إيهاب قائلاً

- هل تطور الأمر؟!

يرد بلال بنصف عقل:

- أجل

يصمت إيهاب قليلاً ثم يتحدث قائلًا

- صعب أن تجد سكنا في وقت متأخر من الليل هكذا. ما رأيك بأن تأتي معنا؟ إن الشقة التي استأجرناها كبيره وستكفينا جميعاً. إن لم يكن لديك مانع. فنحن نرحب بك

يهز بلال رأسه موافقاً

- حسنا. سأدفع معك نصف الإيجار ولكن خذني إليها

يتنهد إيهاب بابتسامه قائلًا

- ماذا بك يا رجل. نحن أبناء وطن واحد. ثم ينهض ويتابع..

- هيا بنا

يخرج الثلاثة من المقهى يسيرون في الطريق نحو شقتهم، يتحدثون أثناء سيرهم ويلقون بعض النكات ولكن بلال لازال شارد العقل. ربع ساعة من السير وها هم قد وصلوا إلى الشقة.

لقد كانت رائعة في نظر بلال رغم أنها كانت أقل جمالاً من غرفه مبني ميشاند.. ولكن جمال المكان وحده لا يكفي إن كان يعقبه عدم راحة وعناء..

- هذه غرفتك يا بلال.. ضع كل أشيائك هنا. وهذا هو مكتبك

نظر بلال مبتسماً

- شكراً لك

ثم دخل الغرفة يرمق بعينه نافذة زجاجيه بعرض مترين في جدار خلف السرير تطل على حديقة صغيرة من الطابق الثالث. وفي إحدى زوايا الغرفة الأخرى توجد خزانه ومكتب صغير..

كان بلال سعيدًا جدًا بالمكان الجديد، كان سعيدًا أيضاً لأنه ابتعد عن مبنى ميشاند الذي لم يجد فيه الراحة يوماً واحداً.

فأحيانا قد يعيش الإنسان في مكان يطلق الجميع عليه جنه ولكن في الحقيقة ما تلك الجنة إلا جحيماً يحيط به أسلاكا شائكة لا يشعر بها إلا ساكنها. فليس كل ما تراه العين جميلاً يطمئن له القلب.

نام بلال في تلك الليلة هادئًا دون تفكير أو أرق. يمضي ليله في سكون وهدوء حتى أشرقت الشمس معلنه بداية يوم جديد يحيي كل أمل في صدره. حتى استشعر سعادة غمرت قلبه. فينهض من سريره ويخطو عده خطوات حتى باب الشقة. يفتحه لينظر خارجاً ليطمئن أنه لم يعد يتلقي تلك الرسائل.. فيبتسم حين لم يجد شيئاً.. ثم يسمع أحدهم يضحك من خلفه قائلًا

- لا تخف.. المكان آمن هنا

يلتفت بلال إليه ضاحكًا

- إيهاب!! لماذا استيقظت باكرًا؟!

فيرد قائلا: - لدىّ عمل

يغلق بلال الباب ويدخل إلى غرفته مره أخرى ويخرج بعد عده دقائق مغادراً إلى الجامعة. يستوقفه صوت وهو لازال في منتصف الدرج مناديًا. إنه خالد فيسأله بلال

- ماذا تريد؟!

يرد خالد: - انتظرني. سآتي معك

تمر عده دقائق وها هما الاثنان في طريقهما إلى الجامعة، فخالد يحتاج صديقاً يرافقه في كل مكان، ذلك لأن إيهاب يعمل بجانب دراسته ومشغولاً معظم الوقت..

وبعد يوم مرهق من الدراسة عند الساعة الثالثة والنصف عصراً كان بلال في طريقه عائدًا إلى الشقة يرافقه خالد الذي لا يكف عن إلقاء النكات والضحك عليها...يسير في الطريق ويضحك بقوه ويمسك ببطنه التي أصبحت تؤلمه من كثرة الضحك. ينظر إلى السماء ثم يأخذ نفسا عميقا وبلال يراقبه مبتسماً قائلًا

- كف عن هذا يا خالد. هل أنت متأكد أنك لا تتعاط شيئاً؟

يضحك خالد أكثر في حين لا يجد ما يرد به على بلال. حتى ارتطم بعجوز كان يمر بجانبه فسقط ذاك العجوز أرضاً، لقد كان رجلاً طاعنا في السن ذو شعر أبيض ولحية بيضاء طويلة قد انحنى ظهره من أثر السنوات وكأنه يحمل أثقال الدنيا فوقه. يداه ترعشان ينظر إليه بلال ولا يدري أسببها البرد القارص أم اضطراب أعصاب من كبر سنه. يسرع إليه بلال في قلق قائلًا

- سيدي؟ هل أنت بخير!!

يقول خالد بعد أن توقف عن ضحكه

- ماذا حدث له؟

فيلتفت إليه بلال بغضب

- اصمت أنت.. ثم يعود بنظره إلى العجوز فيجده ينظر إليهما بضعف حتى كاد أن يبكي..

- ماذا فعلتما بي؟ أنا لا أستطيع أن أنهض، ثم امسك برأسه قائلا:

- أشعر بدوار شديد في رأسي

يسرع إليه بلال يمسكه من يدٍ وخالد من الأخرى، يساعدانه على الوقوف. وبلال ينظر إليهم قائلًا

- أنأخذك إلى المستشفى؟

فيرد الرجل قائلًا

- لا لا خذوني إلى متجري أرجوكم

يسأله بلال بلهفه: - وأين هو؟!

يرد العجوز مضطرب الصوت بعنوان المتجر فيأخذانه إليه حتى وصلوا. فيقول الرجل

- أجل أوقفوا السيارة إنه هنا

يهبط الجميع من السيارة ليرى بلال ذاك المتجر للوهلة الأولى.

لقد كان مقسوماً إلى نصفين.. الأول كان مكتبه لبيع الكتب والثاني به منحوتات، يمسك بلال بيد ذاك العجوز إلى حيث أشار له، لقد

كانت غرفه بداخل متجره والتي تعتبر مسكنه. يسند بلال العجوز حتى سريره ثم يضع يده على صدره قائلًا

- كيف حالك الآن؟ ألالت تشعر بالدوار!!

فرد العجوز قائلاً

- بعض الشيء. ولكني أريد أن أطلب منك شيئاً

رد بلال بسرعة:

- تفضل

قال العجوز

- قبل عده أشهر سقطت بعض الكتب على رأسي وسببت لي دواراً جعلني أتوقف عن عملي لمده أُسبوعين. خسرت كثيراً وقتها. ومنذ ذلك الحين وأقل ضربه صغيره فوق رأسي تفعل بي الكثير وتجعلني أمرض لأيام..

نظر إليه بلال بحزن

- آسف لم نكن نقصد. ماذا تريد أن نفعل لك؟

أجاب الرجل بضعف

- أُريدكما أن تديرا العمل عندي في المتجر حتى أتعافي وتتحسن حالتي

نظر إليه بلال قائلًا دون تردد

- حسنا.. حسنا. سنفعل لك هذا. سآتي إليك أنا وخالد كل يوم لنطمئن على صحتك ونعمل بدلاً منك..

ابتسم الرجل قائلًا

- أحسنت يا بني.. أنت طيب جداً

تبسم له بلال ثم تركه مغادراً متجره مع خالد إلى شقتهما. وبينما هما يسيران في الطريق نظر بلال إلى خالد قائلًا

- انظر ماذا فعلت بالمسكين

يرد خالد

- أنت تعلم أنني لم أكن أقصد

ينظر إليه بلال في غضب

- أخبرتك أن تتوقف عن هذا لم تستمع لي. كفاك هراءًا وتوقف عما تفعله

نظر إليه خالد دون أن يتحدث حين استشعر حجم خطأه. ظل الصمت مرافقا لهما حتى وصلا إلى الشقة فلاحظ إيهاب تغير تعبيرات وجههما عما كانت عليه في الصباح. فيقترب إيهاب قائلاً

- ماذا بكما؟ هل حدث شيء؟

يرد بلال غاضبا:

- اسأله

ينظر إيهاب إلى خالد قائلا:

- ما الأمر!!

يصمت خالد دون حديث، فيرد بلال

- حينما انتهيت من أمر الرسائل وجدتني أغرق في أمر آخر. جيد أن ذاك الرجل كان طيباً ولم يطلب شيئاً أكبر

فصاح خالد

- ما الأمر؟ سنعمل معه حتى يشفي وينتهي كل شيء

رد بلال

- ومن أين ستأتي له بالوقت ها؟ نحن نعود من الجامعة كل يوم في الرابعة عصراً. هل سنترك الدراسة لأجله؟! ثم إنني قد قطعت وعداً على نفسي بأن أساعده وأنا لا أخلف الوعود.

ثم سار بضع خطوات في ردهة المنزل ثم التفت إليه قائلًا

- اسمع. سأغيب يوماً عن الجامعة وأذهب له. ثم في اليوم التالي أنت ستغيب وستذهب إليه، كل يوم سيعمل معه أحد منا وهكذا حتى تتحسن حالته..

يطأطئ خالد رأسه

- حسنا يا بلال حسنا. توقف الآن

يتركه بلال مغادراً إلى غرفته غالقًا الباب خلفه. استلقي على سريره بعض الوقت ثم نهض ليخرج الكتب من حقيبته ويجلس على مكتبه لا يريد إضاعة الوقت أو تركه يمر دون أن يستثمر كل ثانيه فيه. فالأيام تمر سريعاً وسيضطر لعدم الذهاب إلى الكلية عده أيام وفي نفس الوقت اختبارات منتصف العام اقتربت..

(7)

يمضي الليل ليأتي الصباح وها هو بلال واقفاً أمام المتجر كما وعد، يجد العجوز جالسًا على كرسيه فيقترب منه

- السلام عليكم

يرد الرجل:

- أهلا يا بني

يسأله بلال مبتسما

- كيف حالك اليوم؟

يرد الرجل

- لازالت رأسي تؤلمني بعض الشيء

يرد بلال بأسف:

- أتمنى لك شفاءًا عاجلاً

*****

يبدأ بلال يومه الأول في العمل الذي يستحوذ على ساعات يومه كاملة في ذاك المتجر يرتب الكتب وينفض عنها الغبار ويبيع للناس التحف والمنحوتات وبين يديه أحد كتبه الدراسية يذاكر فيها كلما وجد فراغا من الوقت دون عمل.

يعود إلى الشقة في التاسعة مساءاً منهكا من الوقوف معظم الوقت، فذاك المتجر مشهور جدا في المكان حيث لا يكف الناس عن التردد عليه. يبدو أن ذاك العجوز قد أفني عمره في صنع تاريخ له هنا..

يدخل خالد غرفه بلال مبتسماً

- كيف حال اليوم. هل العمل جيد؟!

ينظر إليه بلال منهكاً دون أن يتحدث فيقترب منه خالد قائلًا

- آسف يا بلال لم أكن اقصد أن يحدث هذا

ينظر إليه بلال مبتسمًا

- لقد سامحتك

فيقول خالد ضاحكًا

- تسامحني رغما عنك

فينهض بلال ثم يمسك بأحد الكتب ويرمي بها خالد وهو يضحك قائلًا

- اغرب عن وجهي أيها الأبله..

بينما ركض خالد بعيدا ليتفادى الضربة فيعود صوت بلال يعلو مره أخرى

- اذهب للنوم أيها الجبان. ينتظرك غداً يوما مرهق في المتجر

******

أتى الصباح فخرج بلال يسير في طريقه إلى الجامعة التي لا تبعد عن سكنه سوي عشر دقائق من السير. ومن لحظه تخطيه بوابتها يفاجئ

بندى تقف وتنظر إليه من بعيد وكأنها تريد أن تتحدث إليه. فاقترب منها قائلًا

- السلام عليكم

ردت ندى

- وعليك السلام.. أين أنت منذ مده لم أرك!!

فنظر إليها في صمت ثم قال

- لقد حقائله: التغييرات و...

قاطعته قائلة: - ماذا!! هل أنت بخير؟

رد بلال

- أجل. كل ما في الأمر أنني انتقلت للسكن في مكان آخر

فسألته

- لماذا؟ إن مبني ميشاند هو أفضل مكان قد يسكن فيه طلاب الجامعة. هل أنت متأكد من أنه لا توجد لديك أسباب؟

رد بلال

- ربما يوجد ولكني لا أجد فائدة من الحديث في هذا الأمر...فقاطعه صوتها

- حسنا، سأنتظرك عند السادسة في النادي. أما الآن فيجب أن اذهب لدىّ محاضره ثم تركته وغادرت

ظل بلال قابعاً في مكانه دون حراك. وكأنه عاد ليتذكر الأمر وتعاد تفاصيله المزعجة أمام عيناه كشريط فيلم. ينتبه للوقت حين ينظر

إلى ساعته فيجدها قد تخطت التاسعة. إنه ميعاد المحاضرة، لقد تأخر !!فيسرع إلى قاعه المحاضرات ليجد استاذ المادة لم يبدأ بعد. فيجلس في إحدى المقاعد يمسك بأحد كتبه المفتوحة ليراجع درسًا قد فاته بالأمس

في نفس الوقت الذي كان يتأهب فيه إيهاب للخروج من الشقة للذهاب إلى عمله. فإنه لا يهتم كثيراً بدراسته وخاصة أن كليته نظريه. وهو يستطيع المذاكرة سريعاً قبل الاختبارات بعدة أيام. فتح باب الشقة ليخرج وبينما هو يقف ولازال ممسكا بمقبض الباب يرمق بعينه شيئاً على الأرض.. إنها رسالة تشبه رسائل البريد. فالتقطها ثم عاد إلى الداخل ينظر إلى عنوانها ولكنه لم يجد أي شيء سوي التاريخ...فتحها ليجد ورقه كبيره بيضاء مكتوب بداخلها " أحسنت في الهروب من ميشاند. ولكني لن أتركك "

نبض قلب إيهاب بقوه ثم يشرد عقله وتشخص عيناه ويظل واقفاً عدة دقائق في مكانه ثم يعود لينتبه للواقع مره أخرى فيدخل غرفه بلال بسرعة يقلب في كتبه ليجد من بينها مجموعه رسائل مطابقة في الشكل من تلك التي في يده. يقلبهم بين يديه وينظر شاخص العينان يقول في نفسه

- ما الأمر إذاً؟ لو عاد بلال ورأي تلك الرسالة تأتيه مره أخرى سيضطرب فِكْره وربما يترك المكان..

ثم يتنهد ويأخذ نفساً عميقًاويخرجه ببطء ثم يتابع قوله

- إن ترك بلال المكان فلن اطمئن عليه في آخر. إنه غريب عن هنا.
سار في الغرفة ذهاباً وإياباً محدثا نفسه
- فقط أتمنى لو أستطيع معرفه المرسل
يسير عده خطوات خارج غرفه بلال ولازال ممسكاً بتلك الرسالة في يده قائلاً
- جيد أن خالد ليس هنا. سأخبئ هذه الرسائل في مكان لا يستطيع بلال الوصول إليه..
ثم ينتهي مما قرر فعله سريعا ويخرج من الشقة مغلقا الباب خلفه متنهدًا بعمق وأثناء رحيله يفاجئ ببلال واقفاً أمامه فيضع يده على قلبه مضطربًا، فيضحك بلال قائلاً
- ماذا بك يا رجل.. قلبك ضعيف جداً
ثم تتعالي ضحكاته الهستيرية وإيهاب لازال واضعاً يده على صدره ثم يأخذ نفسًا عميقًا ويضحك بصوت أعلى وقلبه لازال يخفق بشده مما حدث، ثم يتركه مغادراً إلى عمله..
يدخل بلال الشقة ليجد الهدوء قد عم المكان. لا يوجد بها سواه وها هو متفرد بوحدته.
دلف غرفته ورغما عنه سقط على سريره ثم غط في نوم عميق.
بعد عده ساعات يفتح عيناه ليري ضوء القمر يتخلل الغرفة عبر زجاج النافذة فينظر مضطرباً إلى الساعة التي لازال يرتديها في يده فيجدها قد تخطت السادسة مساءاً.. فينهض مسرعا لقد تأخر على

موعده مع ندى !!، يبدل ملابسه سريعاً ثم يخرج إلى الشارع متجهاً إلى النادي..

في صالة الألعاب الرياضية يرمقها بلال تربط شعرها البني وتلفه أعلى رأسها بينما تقوم بتدريب مجموعه من الشباب والفتيات تحت سن الخامسة عشر.

يناديها فتلتفت إليه وقد اختلطت بسمتها بالمفاجأة فيرى فيها جمالاً لم يره من قبل. عيناها الرمادية الكحيلة قد أضفت عليها جمال وزادتها حُسنا. وثغرها ذاك المبتسم دائماً يصنع سحراً لكل من يراها.

تخطو عدة خطوات نحوه قائلةً بهدوء

- لماذا تأخرت؟!

فيرد بلال مبتسمًا

- آسف. لقد غفوت لبعض الوقت لم استيقظ إلا متأخراً

فقالت ضاحكة

- منذ متى وأنت تحفظ المواعيد؟!

*****

في مقهى النادي جلس الاثنان وبدأت ندى حديثها

- إذا أخبرني، كيف حالك الآن؟

فرد بلال:

- بخير.. أنا بخير

تنهد بلال ثم بدأ يحكي لها ورغم أن لم يكن يريد فعل ذلك ولكنه يعلم أنها لن تهدا إلا إذا علمت بكل شيء.. ثم ختم حديثه قائلًا

- هذا كل ما في الأمر

فنظرت إليه قائله:

- إن الأمر لغريب حقًا

يرد بلال

- أعلم ذلك ولكن حمدا لله أنه توقف. يصمت قليلًا ثم يعود للتحدث وكأنه يريد أن يخبرها أمرًا

- لقد أصبحت أعمل

ترد ندى بدهشة:

- حقاً؟!

يومئ بلال برأسه قائلًا

- لم أكن أريد ذلك ولكنى كنت مجبرًا

ثم تتوالى أسئلة ندي الغير متناهية والتي رغم أنها ترهق بلال إلا أنه أصبح يحبها أكثر، ويستمر حديثهما حتى ينظر بلال إلى ساعته ليجدها قد تخطت العاشرة مساءاً. فيعود بنظره إليها وينهض معتذرا

- آسف يجب أن أعود الآن. فغدًا هو يومي في العمل

تبتسم ندي قائله

- حسناً. يمكنك الذهاب ولكن لا تتأخر في القدوم إلى هنا

يبتسم بلال قائلًا

- لن أتأخر. ثم يتركها مغادراً ولكن إحساسه ومشاعره تجاهها ليست ككل مره يتركها فيها. يشعر بشيء غريب بداخله ينجذب نحوها لا يريد الرحيل. لا يدري أهي فتنه الحب أم مجرد إحساس كاذب؟

يسير عده خطوات ثم يلتفت ناظراً إليها من خلفه، فيجدها لازالت تجلس في المقهى ممسكه بهاتفها الذي يشع ضواءًا ينعكس على وجهها...

تستشعر أنه وقف فننظر إليه بطرف عينها لتجده قد رحل، فتظن أن ما كانت تشعر به لم يكن سوى سراب فتبتسم هي الأخرى ابتسامه غير معهوده. بينما على الطريق لازال بلال يسير ويدور في عقله حديثهما ويتردد في أُذنه صوتها الرقيق وأمام عيناه لازال يراوده طيفها.

أصبح يشعر بشيء جميل في صدره قد حل مكان الخوف والقلق، فعدة دقائق مع من نحب كفيله ببث الأمان في قلوبنا.

*****

يفتح بلال باب الشقة فيجد خالد ملقى بجسده على أريكة في الردهة ويحدق إليه. يسأله بلال بقلق

- ما بك؟

يرد خالد بضعف:

- لا شيء. إنني مرهق فقط

يضحك بلال بصوت مرتفع بعد أن تذكر أن خالد قد أُرهق اليوم في العمل ثم ينظر إليهم قائلاً

- الجزاء من جنس العمل

يبتسم خالد دون حركه ثم يقول في نفسه

- أبله وستظل

يلتفت بلال: - أتريد شيئاً؟!

فتلعثم قائلا:

- أ...أجل بعض الماء البارد

يضع بلال يده على جبينه ضاحكاً

- حالتك يرثي لها.. ماذا حدث اليوم؟

يرد خالد

- ذاك العجوز أرهقني.. أشعر وكأني هدمت متجره وبنيته وحدي

يبتسم بلال بعد أن أحضر له زجاجه مياه

- لازلت في البداية انهض..

ثم يلقي بالزجاجة بجانبه على الأريكة ويتركه ويدخل غرفته مستلقياً على سريره خالدًا في نومه، فغدًا هو يوم العناء الأكبر..

تمر الأيام ويستيقظ إيهاب كل يوم قبل الجميع ليفتح باب الشقة ويتلقى الرسالة ثم يخبئها ليستيقظ بلال في الصباح بمزاج جيد دون أن يتعكر صفوه.. فيذهب لأداء مهمته أيا كانت في المتجر أو الجامعة ويعود بخير..

مضى أسبوع والأمور تسير على نحو جيد، لقد شعر صاحب المتجر أخيراً بتحسن وأنه يستطيع إدارة العمل وحده.. يقف أمامه بلال وخالد فيسير بضع خطوات ثم يلتفت ناظراً إليهما قائلًا

- شكرا لكما على كل شيء.. الآن يمكنكما الذهاب كما شئتما.. ثم يصمت قليلاً ويتابع قوله

- ولكني كنت أتمنى لو تعملا معي دائماً.. لقد أحببت وجودكما معي هنا، سأضع لكم راتبا كل شهر يساعدكم في شراء ما تحتاجونه في الدراسة..

نظر إليه بلال قائلًا

- ولكن سيدي. نحن..

فقاطعه خالد

- حسنا أنا موافق

فنظر إليه بلال وهو يمتص غضبه ثم عاد بنظره إلى الرجل قائلًا

- آسف سيدي لدىّ اختبارات الأسبوع المقبل وأريد التفرغ لها، وبعد الاختبارات سنأخذ إجازة لشهر سأسافر فيها إلى وطني

فقال الرجل

- لا بأس يا بني، يمكنك القدوم بعد انقضاء وقت الجامعة وانتهائك من المذاكرة. في أي وقت تريد

(8)

لم يجد بلال عذرًا ليرفض في حين رد خالد

- حسنا سنأتي. ثم تركاه وغادرا

في أثناء سيرهم للعودة يقول خالد: - ما رأيك يا بلال؟

فيرد بلال قائلاً

- اصمت أنت، أنت دائما تورطني في أشياء لا أريد فعلها

فقال خالد ضاحكاً

- لا بأس إنه عجوز ضعيف. ماذا إن ساعدناه وأخذنا أجراً من الله وأموالاً منه. ماذا في ذلك؟

صمت بلال قليلاً حين شعر بتناقضات داخله، فأحيانا يرى أنه من الأفضل أن يركز في دراسته كما وعد والده ولا ينشغل بأشياء أخرى تلهيه عنها. وأحياناً أخرى يشعر بأنه بدأ يقتنع بكلام خالد وخاصة أن الرجل لم يفرض عليهم أي شروط ولم يضع له قيودًا.. عاد صوت خالد مره أخري

- بلاااال.. لماذا لا تجيب؟

يتوقف بلال عن شروده قائلاً

- سأفكر في الأمر

*****

في اليوم التالي يذهب بلال وخالد إلى الجامعة وفي طريق عودتهما يخرج صوت خالد من بين الصمت

-إنها لثالثة عصرًا

فسأله بلال: - وما معني هذا؟!

رد خالد: هل فكرت في أمر المتجر...؟ هيا لنذهب

ابتسم بلال قائلاً

- لقد أقنعني حديثك بالأمس وأنا ليس لدي مانع ولكن سننهي المذاكرة أولا.. ألا تذكر أنه لم يتبقى سوي ثلاثة أسابيع على الاختبارات؟!

ضرب خالد رأسه بيده وكأن بلال ذكره بشيء كان قد نسيه حقاً ثم رد قائلًا

- معك حق..

*****

عند السابعة مساءاً كان خالد وبلال في طريقهما إلى المتجر وحين وصلا والتقيا بذاك الرجل كان سعيدا جدا بهما..

هما أيضًا كانا سعيدان لأنهما سيسعيان في الخير حين يقومان بمساعده عجوز مسكين.. كان المتجر مزدحم بالأشخاص الذين أتوا للشراء أيًا كان مطلبهم من كتب أو منحوتات...يقف الثلاثة على أقدامهم لا يستطيعون السكون.. ويقول بلال في نفسه

- حقاً إن هذا الرجل مسكين.. أيفعل كل هذا وحده؟!

*****

تمضي الأيام بعدها وتتوالى وهم يترددان على هذا المكان كثيراً بعد الدراسة ثم توقفا لفترة بسبب الاختبارات التي كانت تقام في الجامعة والتي استمرت شهراً كاملاً.. وبعد انقضاء الشهر. قرر بلال العودة إلى موندراي لقضاء اجازة منتصف العام بين عائلته..

وفي ليله شتاءيه باردة، أسفل قطرات المطر الهابطة من السماء نحو لأرض وكأنها قطع كريستالٍ تلمع من بين الظلام، تصنع تلك القطرات سيلاً من الماء الذي غطى الشوارع والطرق. وتلك السيارات التي رغم زيادة المطر لازالت تسير في الطرقات. يرتدي بلال سترته السوداء التي تقيه من البرودة والبلل.

ورغم سوء الطقس إلا أنه كان مصممًا على الذهاب إلى النادي حيث ندى. فقد أصبح يشتاق إليها كثيراً ويريد أن يراها ما بين الحين والأخر حتى تمني لو تظل أمامه للأبد.

يحبس بداخله مشاعرًا لا يستطيع البوح بها. ولا يدري أهي حقيقة أم مجرد وهم. ولكن كل ما يعلمه أن مشاعر الحب تجاهها تزداد كل يوم عن ذي قبل. حتى فاضت لتظهر في أفعاله وكلماته..

وصل بلال إلى النادي بعد عدة دقائق ليجد ندي هناك بالقرب من حمامات السباحة تجلس على حافتها تدلي قدمها في الماء وتنظر

للسماء مغمضة العينين تلامس قطرات المطر وجهها بلطف كأنها ترويه. يقترب منها بلال وهو يبتسم قائلًا

- أتحبين المطر مثلي؟

يضطرب جسدها وكأنها لم تتوقع مجيئه في هذا الوقت ثم تعود لتبتسم

- بلال.. أين أنت من فترة لم أرك؟

جلس بلال بجانبها يضع قدماه في الماء هو الأخر بعد أن خلع حذائه ينظر إليها بنظرات دافئة..

- كيف حالك؟!

تبتسم إليه ثم تعود بنظرها لماء حمام السباحة الذي تتساقط بداخله قطرات المطر وتنعكس به أيضا والأضواء المحيطة بهم ثم تنظر إلى صوره بلال المنعكسة في الماء قائله

- بخير وأنت؟

فيرد وعيناه تلمعان

- جئت لتوديعك لأني سأعود إلى موندراي غدًا

تنظر إليه بدهشة قائلةً

- ماذا؟ ستعود إلى اوباكو ثانيةً صحيح!!

يضحك بلال فتبتسم ثم تضع يدها على وجهها قائله

- لم أكن أقصد. فقط كنت أريد أن...

فقاطعها بلال

- أجل سأعود. ثم نظر أمامه وتابع

- سأستغل الإجازة في زيارة عائلتي ووطني

تنظر إليه فيلاحظ بقوة بريق عيناها فتقول مبتسمة

- حسنا. لا تتأخر

يُخرج يده من جيبه ثم يقترب من يداها الباردتين ويضع لها هديه صغيره قائلاً

- هذه لكِ

ترد بسعادة:

- حقاً!!

فيومئ بلال برأسه مبتسما:

- أجل..

ومن دون أن تشعر تحتضنه وبريق عيناها يزداد تكاد أن تدمع على رحيله ولكنها تتمالك نفسها وتبتسم، فيحتضنها هو الآخر حين استشعر حبها له فتزداد دقات قلبه التي كان بمقدور ندى سماعها رغم علو أصوات المطر

******

أمام متجر العجوز يقف خالد الذي تردد في الدخول يظن أنه قد نسي أحد كتبه بداخل المتجر ولا يكاد يذكر أين نسيها بالتحديد.. هل في الجامعة؟ أم في المتجر؟ توقف عن تساؤلاته ثم دلف

- السلام عليكم يا جدي.. كيف حالك؟

يرد الرجل بضعف

- أهلا خالد.. ما الذي جاء بك في هذا الوقت المتأخر؟

ينظر إليه ثم عاد بعينيه التي كانت تنظر حوله في كل مكان فشعر الرجل أنه يبحث عن شيء ما، فقال خالد

- لا أدري أين نسيت كتابي.. لا أجده في الشقة

فينظر الرجل إلى أحد رفوف المكتبة قائلًا

- أهذا هو؟!

نظر إليه خالد مندهشاً:

- أجل. شكراً لك

فيضحك الرجل ثم يصمت برهة ويقول

- بلال سيعود إلى وطنه غدا صحيح؟!

يرد خالد:

- أجل. هل أخبرك؟

فيبتسم الرجل قائلًا:

- أجل.. ثم ينهض من الكرسي الذي كان يجلس عليه ويسير عدة خطوات إلى داخل غرفته محضراً حقيبة في يده قائلًا

- خذ بتلك الهدية إليه وأخبره أن جدك صالح يقول لك خذ بها لعائلتك في رحلتك إلى موندراي

يبتسم خالد:

- حسناً

*****

على مكتب بلال يضع خالد الهدية فينظر إليه قائلاً

- ما هذا ؟!

فيضحك خالد

- هديه لعائلتك من الجد صالح

فيضحك بلال بصوت مرتفع ثم يعود ليبتسم

- لا أعرف كيف أرد له كل هذا. إنه حقا لرجل طيب. ثم يعود بنظره إلي خالد ويتابع

- إنها أُولي المرات التي تأتي لي بشيء جيد

فرفع خالد حاجباً عن الآخر قائلًا

- بحقك يا رجل. أتقسم على هذا؟!

فيضحك بلال ثم يرد

- إذًا هيا اخرج من هنا.. أريد النوم فغدًا سأسافر، ثم يجلس على سريره ويسأله

- ألن تعود معي إلى موندراي؟

يرد خالد

- لا. لقد أصبح لدي عمل هنا وأريد البقاء

ثم يسير بضع خطوات خارج الغرفة فاستوقفه صوت بلال سائلًا

- كيف علم الجد صالح أنني سأعود موندراي غدًا؟

فيعود خالد مجيباً بدهشة

- ألم تخبره؟ فهز بلال رأسه نافياً، فيزداد خالد تعجباً ثم يغادر الغرفة في صمت

*****

قبل شروق الشمس يرن المنبه معلنًا الرابعة فجراً. فينهض بلال من فراشه ليخرج إلى الردهة فيجد إيهاب وخالد قد أعدا له طعاماً وجهزا له كل شيء. يبتسم إليهم ملقياً السلام. ثم يغسل وجهه ويعود إليهما بعد أن دخل غرفته وبدل ملابسه وها هو خارجاً يحمل حقيبته. يفاجئ بإيهاب واقفًا أمام غرفته ينظر إليه بعينين مترقرقتين.. يقترب منه ويحتضنه قائلًا

- سأشتاق إليك يا صديقي

يبتسم بلال ثم يربت على كتفه وهو لازال يحتضنه ويرد قائلاً

- وأنا كذلك يا إيهاب..

يعلو صوت خالد من خلفهم ضاحكاً ثم يربت عليَّ كتف إيهاب قائلا:

- هل انتهيت؟

يبتسم إيهاب ثم يتراجع فيحتضن خالد بلال بقوه قائلًا

- لا تتأخر يا فتي. أوباكو ستشتاق إليك

يتركهم بلال مغادراً وعند باب الشقة يفاجئ برسالة. ينتبه لها إيهاب فيتقدم بسرعة ثم يمسك بها قائلًا

- أخيرا. لقد أرسلت لي الشركة أوراق الترقية. مؤكد أنها هي

ينظر إليه بلال مبتسما

- تهانينا.. أنت تستحقها

ثم ينظر إلى ساعته فيجد أنه قد تأخر عن موعد الطائرة فيتركهم مغادراً

*****

يرحل بلال وفي الردهة يبتسم خالد إلى إيهاب قائلًا

- مبارك. جاءت ترقيتك مبكراً هذا العام

فيتقدم إيهاب حتى شرفه الردهة ثم يتنهد ويرد قائلًا

- هذه ليست ترقيه

(9)

يسأله خالد بدهشة

- إذًا ما هذا؟

يتنهد إيهاب ثم يرد مثقلاً

- إنها نفس الرسالة التي ترسل إلى بلال كل يوم

يصمت خالد قليلاً وكأنه قد صدم من القول فيسأله

- ألازالت تأتيه؟

ثم يسير بضع خطوات ويلتفت إلى إيهاب ويتابع:

- ما الموجود فيها إذاً؟

يفتح إيهاب الرسالة ليجد عبارة تقول

" إجازة سعيدة في موندراي يا بلال "

فيلتفت إلى خالد ثم يناوله الورقة دون حديث، فيقرأ خالد ثم يعود بنظره إليه قائلًا

- لست أفهم شيئاً...!!

ومن أين للمرسل معرفه أنه سيعود اليوم إلى وطنه؟!

يسأله خالد:

- لماذا لم تخبره إذاً؟!

يرد إيهاب

- لا يجب أن نفعل هذا. يجب أن نبقي الأمر سرًا..

*****

في المطار يجلس بلال في أحد مقاعد الاستراحة منتظراً مرور نصف ساعة ليستقل الطائرة...يمسك في يده كتاباً يقرأ فيه. ورغم نهمه وحبه للقراءة إلا أن تفكيره كان منصباً على ندى...

يدور في عقله حديث الأمس، لازال صوتها في أُذنه يردد مناديًا باسمه. فابتسم في هدوء ثم عاد بنظره إلى كتابه ولازال الصوت يتردد على مسمعه. شعر بطيفها يقترب منه رويداً رويدا.

ليعود للواقع مرة أخرى على صوتها الحقيقي.. إنها حقًا هي..

يبدو أن ما كان يشعر به ويسمعه صحيحاً، لم يكن طيفًا أو سراب، يقول البعض أن لغة الأرواح لا تخطئ وهي تجيد التخاطر أقوى من أي شيء أخر..

قام بلال من المقعد مندهشاً وعلى وجهه لازالت ترتسم ابتسامة يمزجها الحب

- أتيت لأراك قبل أن ترحل

يرد بلال قائلًا

- أنا ايضًا كنت أتمنى ذلك. ثم ضحك وتابع

- كنت أتحدث إلى طيفك منذ قليل

فابتسمت ثم فتح ذراعيه وقام بضمها إلى قلبه الذي طال ما نبض بحبها، كانت تستند برأسها عليه وتسمع صوت دقاته التي تعزف اسمها.

يطرق أُذنا بلال صوتاً أن على كل المتجهين إلى موندراي الذهاب إلى طائرة رقم ٦٧٥٦ فيعود بالنظر إلى ندى وهو لازال ممسكاً بكلتا يديها ثم يبتسم قائلا

-أنا أتذكرك دائما.. لذا يجب ان تتذكرينني دائما أنت أيضًا

ابتسمت ندى ثم هزت رأسها توافق حديثه في صمت.

غادرها بلال بعد أن استأذنها ليفلت يديها وعينيه تلمعين من بريق دموعها وهي كذلك..

وقفت في مكانها تراقبه وهو يبتعد عنها شيئاً فشيئا، وتبتسم ابتسامه قد امتزجت بالشوق إليه من قبل أن يرحل

*****

في الطائرة ها هو بلال يجلس ليراقب شعاع الشمس وهي لاتزال تشرق بضوئها الأبيض الفجري الهادئ. يري قطرات من الندى العالقة على الزجاج من الخارج ويشعر بدفء المكان داخل الطائرة، ثم يعود بذاكرته إلى يوم رحيله عن موندراي ويتذكر كيف كانت عائلته ويبتسم، يراوده طيف ندى من جديد فيشعر بأنه يريد العودة لأجلها ويشعر بأن قلبه يكاد ينقسم

فجزء يحب موندراي والأخر معلق بشخص في اوباكو

عده ساعات وها هو يضع قدماه على أرض الوطن.. وما أدراك ما الوطن وطابعه الخاص بداخل كل بشريّ.. ورغم أنه كان في بلاد أشد جمالاً من موندراي إلا أن قلبه لازال معلقاً بها..

فالوطن يظل وطنا مهما ابتعدنا وطفنا العالم، إنه ليس مكاناً بل أهل وأصدقاء وذكريات في الأماكن التي قضينا بها طفولتنا والتي تظل محفورة ما دمنا أحياء بداخلنا وعالقة بين ثنايا عقولنا، فلا يمكن لأحد أن يخرج ذاك الشعور المتغلغل في أعماقه...فالبلاد كثيرة ولكنّ الوطن واحد، وليست كل البلاد أوطان.

ها هي موندراي التي يعرفها بلال جيداً. يمسك بحقيبته ليخرج من المطار فيجد والداه وأخته حنين بانتظاره. فيسرع في خطاه إليهم وفي قلبه السعادة تفيض حتى باتت تسيطر على كل كيان فيه. يترك الحقيبة من يده ثم يركض تجاه والده فيحتضنه بقوه وكأنه قد غاب عنه دهراً لا عده أشهر. ثم يتركه ليقبل والدته أعلى جبينها الذي اشتاق لقبلاته. يبتسم إلى أُخته حنين التي قام بحملها وهي تصرخ خائفة وهو يضحك بصوت مرتفع حين يرى تعبيرات وجهها البريئة وقد تغيرت للخوف..

*****

يستقل الجميع سيارة كريم إلى منزلهم، فيجلس بلال في الكرسي الخلفي منها بجانب حنين فتاه الثانية عشر يمسك بيدها الصغيرة ويبتسم إليها قائلًا

- كم أوحشتني يا حنين

فترد أُخته قائلةً

- وأنت أيضًا يا بلال.. أريد أن أطوف شوارع موندراي معك كما كنا نفعل قبل أن تسافر

فيبتسم ثم يمسك وجنتها الصغيرة بإصبعيه قائلاً

- سنفعل يا حلوتي..

ثم يقرب يدها إلى فمه ويقبلها لا يستطيع مقاومه براءة طفولتها التي تتعمق بداخله، فحب الأطفال طبيعة فطريه قد خلقنا عليها أجمعين. يعود بنظره إلى شوارع موندراي ويستعيد ذكرياته في كل مكان مر به. فهذه مدرسته التي قضي بها مرحله الثانوية مع أصدقائه القدامى، وهذا مطعم قد تناول فيه العشاء يوماً مع عائلته، وتلك هي الحديقة التي كان يزورها دائما مع أخته حنين، استمرت الأماكن بتذكيره بالأشخاص والسنوات التي مضت حتى وصل إلى منزلهم وهو موطن الذكريات الجميلة كلها..

*****

دخل بلال غرفته ثم وقف ناظرًا إليها وهو لازال ممسكاً بمقبض الباب. يرمقها بعين الاشتياق ويمسك بيده اليمني حقيبته. قام بالدخول والاستلقاء على سريره فدلفت نور والدته تقول بفرح تملك قلبها

- أنا سعيدة جداً بقدومك يا بلال. لقد أوحشتني كثيرًا يا بني

فقام بالجلوس مبتسماً

- كيف هي موندراي يا أمي؟

فقالت بهدوء

- ستراها...ولكن يجب أن تنام الآن.. فأمامك متسع من الوقت للتجول فيها

*****

تشرق الشمس على أرض اوباكو فيستيقظ إيهاب متجهاً إلى العمل كعادته.. ليفاجئ أنه لم يعد يتلقي رسائل.. فضحك قائلًا

- المرسل معه حق، فهو يعلم أن بلال سافر إلى موندراي.. مؤكد أنه قد نقل منظار مراقبته إلى هناك.. يحاول إيقاف ضحكاته ويسير في طريقه ويفكر في أمر بلال.. ويتساءل..

- من الذي يفعل به هذا؟ أيًا كان فقد أوقف الرسائل الآن لعلمه أن بلال ليس هنا.. ثم صمت قليلاً وتابع

- ولكني أخشى أن ترسل تلك الرسائل إلى منزله في موندراي ووقتها سيراها ولن يكون هناك أحداً ليخبئها منه..

تظل التساؤلات تطرق عقله شرقاً وغرباً حتى وصل إلى عمله وأنهمك فيه ليكف عقله عن التفكير.. لقد أصبح الآن يفكر في هذا الأمر بدلًا من بلال، لقد حمل عنه عبئًا ثقيلاً أرهقه

*****

في نفس الصباح الباكر يستيقظ بلال حين يتخلل ضوء الشمس غرفته عبر زجاج النافذة، فينهض من سريره ليجد نفسه في منزله فيبتسم.. لقد اعتاد كل يوم أن يستيقظ في تلك الشقة التي يسكن فيها مع إيهاب وخالد.. ليدرك حقا أن العيش بدون عائله أمر سيء وأن الأصدقاء وحدهم لا يكفون لملئ ذاك الفراغ الذي كان يشعر به دائما في أوباكو ولكنه لم يحدث به أحدًا.. لقد كان يعذر خالد حين كان يتحدث معه في ذاك الأمر كثيرا دون ملل..

يعود ليبتسم ثم يخرج من غرفته ليجد والدته قد أعدت فطورًا والجميع ينتظره.. تصرخ حنين وتركض تجاهه ثم تمسك بيده وتقفز قائلة

- استيقظ بلال يا أمي.. بلال!! أين ستأخذني اليوم؟

يأتي صوت الأم من المطبخ قائلًا

- اتركيه الآن يا حنين..

فيبتسم بلال هامسًا إليها

- سآخذك حيث تريدين.. ثم يمسك بيدها ويسير بها نحو الردهه

*****

تناول الجميع فطورهم ثم جلسوا لاحتساء القهوة كعادتهم.. يسأل كريم بلال عن حاله وعن المدينة الجديدة التي سافر إليها فيجيب

- إن المكان هناك رائع يا أبي.. إن اوباكو أجمل من موندراي بكثير...الجامعة رائعة وقد وجدت خالد هناك

يرد كريم بدهشة

- حقاً...!! جيد أن هناك أحداً من أصدقائك القدامى

يبتسم بلال ثم يتابع حديثه

- لقد وجدت عمل

ينظر إليه كريم بدهشة أكبر

- رائع، ولكن.. هل يؤثر هذا على دراستك؟

رد بلال

- في البداية كنت أظن ذلك. ولكن الرجل الذي أعمل معه لا يضع لي شروطا أو قيود. كما أنى وجدت فيه الطيبة، إنه دائماً مبتسم

يرد كريم قائلًا

- حسنا يا بلال. كما تحب، إنك تعلم أنى اترك لك الحرية الكاملة في كل شيء

ينهض بلال من مكانه وكأنه قد تذكر شيئاً ما ثم دخل إلى غرفته وعاد بالهدية التي أعطاها له الجد صالح صاحب المتجر

فيضعها على طاوله في منتصف الردهة التي يجلس فيها الجميع فتسأله حنين

- ما هذا يا بلال؟

يبتسم بلال قائلًا

- لست أدري.. إنها هديه من صاحب المتجر إليكم ولكني لم أفتحها بعد

تقوم حنين بفتحها فيجد بلال أنها إحدى المنحوتات التي يصنعها الجد صالح فيبتسم ثم يحملها إلى أحد الرفوف الموجودة في الردهة ناظراً إليها بعينين تلمعين

*****

في الخامسة مساءاً وعلى شاطئ البحر يجلس بلال مع عائلته يراقب أمواجه المتضاربة وأصوات الطيور المحلقة من فوقه، أَمامه كوبا من عصير التفاح الذي يحبه، ويفلحه هواء دافئ ليوم مشمس رغم انتصاف الشتاء يعود بنظره إلى والده سائلًا

- ألازلت تحب البحر يا أبي؟

فنظر كريم إلى نور مبتسماً ثم عاد بنظره إلى بلال قائلًا

- وهل هناك من لا يحبه؟! ثم يصمت قليلاً ويتابع حديثه

-أخبرني أنت. كيف لا أحبه وهو من قربني إلى والدتك؟

يحمر وجه نور خجلا فتبتسم ويضحك بلال بصوت مرتفع قائلًا

-حسنًا حسنًا.. أظن أنني أخطأت في السؤال

فيضحك الجميع حين لا يجدون ما يقولونه.. ثم يأخذهم الحديث إلى ما بعد غروب الشمس

*****

تمضي الأيام وتتوالى كأنها بسرعة السحاب في سماء عاصفة وتنتهي الإجازة سريعاً ويعود بلال إلي اوباكو لاستكمال دراسته..

(10)

يطرق الباب فيفتح له إيهاب الذي تفاجئ بعودته ثم يحتضنه بقوه

- أوحشتني يا رجل

يأتي صوت خالد من داخل إحدى الغرف سائلًا

- إيهاااب. من أتى؟!

فيعلو صوت إيهاب بسعادة قائلًا

- إنه بلال..

فيأتي خالد راكضًا نحوه بقلب تغمره السعادة فيحتضنه هو الأخر قائلًا

- أخيرا أتيت. لقد كنت أعُد الأيام عَدًا في غيابك

يسأله بلال:

- لماذا؟

فيرد خالد

- جدك صالح كل يوم يسألني عنك ومتى ستعود

فيضحك بلال قائلًا

- جدي؟ هه.. كم هي رائعة تلك الكلمة.. ثم يصمت قليلاً ويتابع

- لقد أوحشني هو الآخر

******

في صباح اليوم التالي يستيقظ بلال للذهاب إلى عمله مع خالد.. فلازال أمامهُ من الوقت ثلاثة أيام ليعود للجامعة.. يخرج من غرفته ليفاجئ بإيهاب ملقي على الأرض فيضع يده على رأسه فيستشعر حرارة جسده التي لم يستطع أن يطيق ارتفاعها فأزاح يده مسرعًا ثم نادي مضطرباً

- خاااالد...خالد

أتى خالد من الغرفة مسرعاً يقاوم النوم يحاول فتح عيناه بصعوبة

- ماذا؟!

وما إن رأى إيهاب على الأرض ركض نحوه مسرعاً ثم بدأ يهزه وينادیه وهو ينظر إلى بلال في دهشة قائلًا

- ماذا حدث له؟

يرد بلال

- بسرعة ساعدني على حمله

يحملانه إلى إحدى الأرائك ثم يتصلان بالإسعاف، عده دقائق حتى أتت تحمله إلى المستشفى وبلال وخالد يرافقانه ودقات قلبيهما تزداد أكثر فأكثر. ينظر إليه بلال نظره يشوبها الحزن الممزوج بالقلق ثم يمسك بيده فيجد حرارة الجسد تزداد. ولأن المستشفى كانت قريبة. فالطريق لم يستغرق كثيراً من الوقت

في إحدى غرف المستشفى يتحدث الطبيب قائلاً

- حالته ليست مطمئنه. يجب أن يظل هنا عدة أيام حتى يتحسن. ثم تركهم وغادر

يخرج بلال خلف الطبيب راكضاً حتى لحق به

- من فضلك...!!

يتوقف الطبيب ثم يلتفت خلفه نحو بلال فسأله

- أيها الطبيب. من فضلك أخبرني ما به؟!

يصمت الطبيب قليلًا ثم يجيب

- إنه مصاب بالحمى، وفى مثل هذه الحالات يجب أن يظل المريض تحت عناية طبية فائقة وذلك لأنها إن زادت عن درجه معينه فإن المخ يتضرر ويفقد السيطرة علي درجه حرارة الجسد...ثم يتركه ويغادر، ليقف بلال في المنتصف حائراً قلقًا

فيلمح ممرضه تسير في ممرات المستشفى وتحمل بعض الأدوية، يشعر أن شكلها ليس بغريب. يظن أنه التقى بها من قبل ولكن ذاكرته لا تساعده على التذكر. يضرب رأسه بيده حتى تذكر. إنها نفس الممرضة التي كانت تعتني به حينما كان مريضًا.. ينظر حوله ليتذكر أنها أيضاً نفس المستشفى التي أتت به ندى إليها. فيركض مسرعاً نحوها

- من فضلك!!

تنظر إليه ثم تتوقف عن سيرها

- هـل يمكنـك القـدوم لإعطـاء صـديقي الأدويـة التي وصـفها لهـا الطبيب؟!

فتنظر إلى الأدوية في يدها ثم تعود بنظرها إليه قائلة

- لقد أحضرتها لا تقلق..

بعد ساعة، تطلب الممرضة من الجميع مغادره المكان، ينحني بلال ليقبل إيهاب أعلى جبينه ثم يرحل..

إنها التاسعة صباحاً وهو لازال أمام المستشفي في طريقه نحو الشقة يرافقه خالد يسيران في الطريق بصمت لا يملك أحدهما شيئا لقوله.. فقلبيهما قد تملكهما الحزن واليأس.. يقف خالد في منتصف الطريق متذكرًا العمل..

- بلال هل ستأتي معي؟

يسأله بلال:

- إلى أين؟

يجيبه خالد:

- المتجر!!

يقف بلال ثم يضع يده على راسه وكأنه قد نسى ذاك الأمر تماماً ثم يجيب

- حسناً هيا بنا.. على الأقل نحن نحتاج المال الآن لأجل إيهاب

يصلان إلى المتجر فيرحب بهما الجد صالح كما يطلق على نفسه، فيسأل بلال عن حال رحلته إلى موندراي ثم ينظر إلى خالد ويقول في سعادة

- جيد أنكما جئتما الآن.. إنني متعب اليوم وأريد أن أستريح من عناء هذا العمل قليلاً..

يقاطعه بلال

- لا تقلق يا جدي استرح أنت وسأفعل أنا وخالد كل شيء..

يدخل العجوز إلى غرفته ثم يغلق بابها ويظل الضوء مشتعلاً بداخلها ليستطيع بلال وخالد رؤيته مشعًا من أسفل الباب فيقول خالد ضاحكًا

- هل جدك يخشى الظلام؟

يضحك بلال هو الآخر قائلًا

- اصمت يا أبله..

ثم يواصلان الضحك لا شعورياً في وسط زحام من الناس المترددين على المتجر باستمرار ليلمح بلال من خلفهم فتاه تسير في الشارع فينادى بصوت مرتفع من بين الزحام

- ندى.. ندى!!

تلفت ندى إلي مصدر الصوت لتراه فتقترب بدهشة وتقول بسعادة

- بلال!! متى أتيت؟!

يتحدث وهو يبتسم ويقول بصوت مرتفع حتى تستطيع سماعه

- بالأمس.. أتيت بالأمس

ترد ندى

- اخرج من هذا المكان.. أريد التحدث إليك

يخرج بلال من المتجر ليستوقفه صوت خالد يأتي من خلفه

- بلال.. إلى أين؟!

يرد بلال:

- خمس دقائق وسآتي

يضحك خالد في صمت ثم يباشر عمله بينما خرج بلال إلى ندى ومن دون أن يشعر احتضنها بسعادة وكأنه قد غاب عنها لعام لا شهرًا واحد ثم نظر إليها قائلًا

- لقد أوحشتني كثيراً

فابتسمت إليه:

- وأنت أيضًا..

يعلو صوت الناس من حولهما فيعبران الطريق إلى مكان أكثر هدوءاً، فيجلس بلال على الرصيف قائلًا

- ذاك المتجر متعب جداً.. انظري إلى كم البشر الواقفون أمامه

تلتفت ندى إليهم ثم تعود بنظرها إلى بلال ضاحكة

- ولهذا كنت تتأخر في العمل؟

أومأ بلال برأسه مبتسمًا ثم تنهد بعمق وقال

- نحن الآن مرغمون على العمل لأجل إيهاب..

تسأل ندى:

- ما به إيهاب؟

يرد بلال

- إنه مريض، وهو الآن في نفس المستشفي التي أخذتي بي إليها.. ثم ينهض ليسير بضع خطوات نحو المتجر قائلًا

-أعتذر منك يا ندى.. يجب أن أذهب لأساعد خالد.. وغدًا سآتي، فتلوح له بيدها قائلة

- حسناً إلى اللقاء..

*****

غادرت ندى ودخل بلال المتجر حيث خالد ومن بين الأصوات العالية يسمع بلال صوتاً مرتفعا يأتي من غرفه الجد صالح.. يبدو أنه صوت ارتطام أو سقوط شيء ما.. يتوقف ضجيج أصوات الناس ويهرع بلال إلى الغرفة ثم يطرق بابها بيد والأخرى تستند عليه قائلًا

-جدي.. هل أنت بخير؟

يجيب الجد صالح

- أجل يا بني.. لا تقلق

يتعجب بلال فينظر إليه خالد الذي ضحك سائلًا

- أهذا هو النائم؟

يضحك بلال قائلًا

- وما شأني.. تحاسبني عليه وكأنه جدي بحق..

يقطع حديثها مره أُخرى صوت ارتطام آخر ثم يري بلال بعض الأبخرة تخرج من أسفل الباب، فيذهب بلال نحوه مره أُخري طارقا إياه

- جدي...هل أنت بخير؟

يصيح الجد

- بخير يا بلال بخير.. توقف عن هذا

يضحك خالد حين يسمع الرد وهو يقول

- اتركه وشأنه يا فتى

ينظر بلال إلى خالد في عجب ثم يكملان عملهما حتى تعلن الساعة التاسعة، فيستأذنان من الجد صالح ثم يتركانه ويغادرا..

وفي طريق العودة، يقرر بلال الذهاب للمستشفي ليطمئن على إيهاب فيسلكان طريقا آخر.. وأثناء سيرهما ينظر بلال إلى خالد في عجب دون حديث...فيستمر خالد في ضحكاته التي لا يستطيع إيقافها قائلًا

- أتعلم؟!

يرد بلال بضيق وكأنه سئم منه:

- ماذا؟

يقول خالد

- لقد اعتدت على ما يفعله ذاك الرجل، إنه يفعل ما تراه عجيباً ذاك منذ أن بدأنا في العمل معه ولكنك لم تكن تلاحظ

يسأله بلال

- وماذا يفعل؟!

يرد خالد

- لقد أخبرني ذات يوم أنه يشعل بعض الأبخرة ليتخلص من رائحة غرفته التي تتغير مع الوقت وذلك لأنها بداخل المتجر وأشعه الشمس لا تستطيع الوصول إليها..

يسأله بلال

- وهل لازال هناك أحد يسكن في مكان عمله؟!

يتنهد خالد ثم يجيبه

- أرى أنه مسكين لا يملك مكاناً آخر

يرد بلال

- إنه يذكرني بشخص ما قد أخبرني عنه والدي، ولكنه في السجن الآن. ثم يصمت حين رأي أنهما قد وصلا اخيرًا أمام المستشفى، فيستوقفهم الأمن قائلًا

- إلى أين سيدي؟

يرد بلال

- لقد جئت فقط لأطمئن على صديقي

يقول الشرطي

- حسناً تفضل

دخل بلال الغرفة ليجد إيهاب لازال قابعاً في سريره فيهرع إليه ثم يجلس على ركبتاه بجانب سريره في قلق بالغ يحدق في وجه إيهاب

الشاحب ثم يلتفت خلفه فيجد الممرضة تجلس على مكتب بنفس الغرفة فينهض إليها ثم يسألها بلطف

- آنستي. من فضلك!!

تنظر إليه ثم تهز رأسها فيتابع

- هل هو بخير؟ متى ستتحسن حالته؟

تتنهد الممرضة ثم تجيب

- إن الادوية التي يتناولها لا تؤدى مفعولا في بداية تعاطيها، ولكنها بمرور الوقت تفعل

نظر بلال إلى إيهاب بأسف وخالد يقف بجانبه فعاد صوت الممرضة مره أخرى

- من الأفضل الآن أن تتركانه

غادر بلال وخالد المستشفى في أسف وحزن على صديقهما الذي لا يدركون ما أصابه..

*****

في اليوم التالي استيقظ بلال وخالد للذهاب للعمل وكالعادة يمرون على إيهاب في المستشفى صباحاً ليجدوا أن حالته لاتزال كما كانت بالأمس فيكملان طريقهما إلى المتجر وهناك ينتظرهما الجد صالح. حتى إذا وصلا دخل إلي غرفته لا يخرج منها إلا عند رحيلهم، فيعودون في آخر اليوم منهكين. طريق عودتهم صامت. هادئ يخلو من أي

حديث ينظر بلال بين الحين والآخر إلى خالد الذي يضحك دائمًا ولا يأبه لأي شيء أيًا ما كان، ولا يحمل للدنيا همًا..

يتذكر بلال أن غدًا هو يوم عودته إلى الجامعة ولن تصبح ساعات عملهم كسابق عهدها فبالتأكيد ستقل. ويقل معها الأجر الذي سيتقاضونه وهم الآن في أمس الحاجة للمال لدفع إيجار الشقة كلها وللدفع أيضاً للمستشفى التي يعالج بها إيهاب. يستفيق بلال من شروده ويعود مره أخري للواقع ويخرج من بحر أفكاره حين يصلان إلى الشقة، كان خالد يسبقه بعده خطوات ويردد لحن أغنيه قديمة كان يحبها فلامست قلبه وأحس ببعض صفاء النفس حين عاد لأيام طفولته البريئة. يصعدان الدرج وعند باب الشقة ينحني خالد ليلتقط ورقه من أسفل قدميه ثم يحاول إخفائها فيرمقه بلال الذي كان يأتي من خلفه فاقترب منه قائلًا

- ما هذا؟!

(11)

توقف خالد ثم التفت إليه بسرعة

- ماذا؟!

يسأله بلال

- ماذا كنت تخفي؟!

يرد خالد متلعثما

- لا. لا شيء. كنت فقط أبحث عن المفاتيح في جيبي

نظر إليه بلال ثم ضحك بسخرية فقد استشعر جذبه ثم أدخل يده في جيبه قائلًا

- بل المفاتيح معي يا أبله

ثم تقدم نحو الباب ليرتطم بكتف خالد أثناء مروره. وخالد يقف ليشاهده دون حركه أو كلمه..

دخل بلال إلى غرفته ثم فتح نافذتها ليستنشق هواءًا باردًا يأتي من الحديقة المجاورة ليبدد ضيق صدره. يتنفس بعمق ثم يستلقي على سريره بعد أن أنهكه التعب.

يتذكر موعده مع ندى الذي نسيه فيضرب رأسه بيده ثم يتنهد ويغمض عيناه ليغفو إلى عالم آخر أقل صخبًا وضوضاء من عالمنا..

*****

في صباح اليوم التالي خرج بلال من الشقة للذهاب للجامعة. وعند بابها تعثر بشيء ما...يقف ليفاجئ بورقه صغيره. يلتقطها من الأرض ثم يفتحها ليقرأ ما بها فيضطرب جسده ويقف دون حركه أو حديث، أتى خالد من خلفه ثم نظر لما في يده فوضع يده على جبينه ثم أدار له ظهره وهو يقول في نفسه..

- لقد نسيت أخذ تلك الرسالة قبل أن يراها

ثم دلف إلى داخل غرفته فيستوقفه صوت بلال

- إلى أين؟!

يلتفت له خالد ويقف صامتاً، فيسير بلال عده خطوات ثم يجلس على جانب الأريكة يمسك بيده الورقة ناظراً إليها قائلًا

- هل عادت تلك الرسائل مرة أخرى!!

ثم يعود بنظره إلى خالد ويتابع

- أهذا ما كنت تحاول أن تخفيه عني بالأمس؟

إنها مصيبة ويجب أن نجد لها حلًا، لا أن نخفيها ونواريها عن أنظارنا لنتلاشى ما نحن به من ورطه.. ثم يصمت قليلاً ويكمل

- أقصد لأتلاشى ما أنا به.. ليس هناك ضرراً عليكما

يرد خالد

- صدقني نحن لا نقصد ذلك..

يقاطعه صوت بلال

- " نحن " ؟!هل هنالك من شركاء وأنا لا أعلم!!

يرد خالد

- أجل.. إيهاب صاحب الفكرة

ينظر إليه بلال في دهشة مما يقول فيتابع خالد

- لقد أردنا فقط أن نبعدها عن أنظارك كي لا تحزن وننتشلك من القلق الذي كنت تعيش فيه.. نحن نعلم أنك مهما فعلت فلن تتوصل لصاحبها.. انظر إلى الرسالة التي في يدك جيداً.. أتجد عنوانًا أو اسمًا مدونًا عليها؟!

يسير خالد بضع خطوات ثم يلتفت إليه ويتابع

- كنت فقط ستعيش القلق بمحض إرادتك، فقط لأنك كنت تريد التصدي والبحث عن صاحبها، كان الخوف سيطاردك دائماً...نحن لم نرد أن يحدث هذا.. ثم يصمت قليلاً ويعود ليسأله

- هل حدث لك أي شيء وقتما كنا نخبئها طوال الفترة الماضية؟ منذ أن جئت إلى هنا وعشت معنا!! هل أصابك من ضرر؟

ثم اقترب منه ووضع يده على كتفه ونظر صوب عينيه قائلًا

- اسمع يا بلال.. بعض الأشياء المؤرقة في حياتنا لا يجب علينا أن نركز عليها، فربما إن بقيت ساعات تفكر وتحلل ما يحدث حولك لجميع الأشياء صغيرة أم كبيرة كانت لأصابك الجنون...بعض الأشياء الغير عاديه لا تعالج إلا بالتجاهل.. تجاهلها يا بلال، أتستطيع؟!

ينهض بلال ثم يسير عده خطوات ويصمت قليلاً ثم يرد قائلًا

- أنت لا تقدر حجم المشكلة. بعض الأشياء تؤلم على المدى البعيد المسكنات التي يتناولها مريض ليتخلص من ألم عابر. لم يفكر لحظه واحده أنها من الممكن أن تسبب له ما هو أسوأ من الألم.. أنت تقتصر على النظر أسفل قدميك..أتفهمني؟!

صمت خالد فتركه بلال بعد أن صرخ ممزقاً الرسالة ورماها على الأرض بضيق ثم غادر..

******

وصل بلال إلى الجامعة فجلس تحت إحدى الأشجار مفترشًا العشب يرفع رأسه لأعلى ليستطيع التنفس بعمق، ويتخلص من كل هذا الضيق الذي يعتريه، يسمع صوتاً يناديه، فينظر حوله ليجدها نهى، إنها إحدى زميلاته بالجامعة فتقول بهدوء

- من فضلك يا بلال.. أريد التحدث إليك

فيسألها:

- هل الأمر ضرورياً؟

فتجيبه:

- أجل..

وفي مقهى الجامعة يجلس بلال مع نهي ليستطيع معرفه ما تريد قوله فتبدأ حديثها قائلةً

- بلال، أنت تعلم أننا لا زلنا في بداية الفصل الدراسي ولم يمض سوى عدة أيام، أومأ بلال برأسه مؤيداً كلامها فتابعت

- لقد قابلني خالد منذ أسبوع وأخذ مني أحد الكتب لمتابعه ما أكتبه من تلخيص لفصول الجيولوجيا.. وحتى الآن لا أستطيع استرجاع كتابي منه

يسألها بلال قائلًا

- هل قابلتيه وطلبتي منه كتابك؟ ربما نسى الأمر

فقالت نهى بضيق

- لقد قابلته منذ يومين وأخبرني أنه سيأتي لي به بالأمس ولكنه لم يفعل

قال بلال بهدوء

- أهذه مشكلتك؟

ثم أخذ يضحك وتتعالى ضحكاته حين تذكر كل المشاكل التي هو غارق بها وظل مستمراً في الضحك حتى دمعت عيناه فيفتحهما ليفاجئ بندى تقف من بعيد وتشاهده وعيناها تمتلئان دموعاً، فترك نهى ثم ذهب إليها مسرعاً ولكنه حين وصل إلى المكان الذي كانت به لم يجدها..

ظل يلتفت يميناً ويساراً عيناه تبحث عنها بين كل الموجودين ليجدها قد اختفت وكأنها لم تكن سوى مجرد طيف راوده.. ولكنه متأكد من أنها كانت هنا، ظل واقفًا لبعض الوقت في نفس المكان حتى سمع صوتًا مألوفًا يأتي من حوله يناديه

- بلال!!

يلتفت إلى مصدر الصوت فيجده خالد فيسأله

- ماذا تريد؟!

يرد خالد بصوت منخفض

- هيا.. ستبدأ المحاضرة الآن

يتنهد بلال بضيق ثم يجيبه وقد صاح

- لن أحضرها...اذهب أنت

ينظر إليه خالد في دهشة ويقول في نفسه أهذا بلال الذي كان يحب الدراسة ويحافظ على كل ثانيه تمر!!

يعود صوت بلال مره أخرى صارخًا في وجهه

- ماذا تنتظر؟

فينظر إليه خالد بحزن ثم يتركه ويغادر

******

ظل بلال جالساً في مكانه ولم يتحرك.. إنه حتى غير قادر على النهوض من مكانه من ثقل ما يحمل من أعباء...مضى وقت المحاضرة وهو لازال في مكانه جالساً أسفل تلك الشجرة يصوب نظره تجاه الأرض صامتا وعقله مستمر في التحدث.. يقطع هدوء المكان صوت هاتفه.. فيخرجه من جيبه بثقل ثم يجيب على مجهول

- السلام عليكم

يرد بلال

- وعليك السلام.. من أنت؟

يجيب المتصل

- سيدي نحن إدارة مستشفي سان.. لقد تعافي صديقك إيهاب وبإمكانه الخروج من المستشفي الآن

يرد بلال بسعادة

- حقاً!!

يجيب الرجل

- ولكن يجب أن يصطحبه أحد.. لأنه سيستمر في تناول بعض الأدوية في المنزل

يرد بلال بلهفه

- حسنًا حسنًا.. أنا قادم الآن

تنتهي المكالمة وينتفض بلال من مكانه وينهض مسرعًا نحو المستشفى وكأن تلك المكالمة غيرت كليا ما كان يشعر به وأنسته ولو لبعض الوقت ما كان يدور في عقله.. استقل إحدى سيارات الأجرة إلى المستشفي حتى وصل، اتجه بسرعة إلى غرفه إيهاب، فتح بابها ليجده جالسًا على سريره ينظر إليه ويبتسم..

أسرع بلال نحوه يحتضنه وعيناه تدمعان

- حمدًا لله على سلامتك. لقد أوحشتنا

ينظر إليه إيهاب وهو لازال محافظًا على بسمته قائلًا

- شكراً لك يا بلال. ثم يصمت قليلًا ويعود ليسأله

- أين خالد!!

يصمت بلال قليلاً ثم يجيبه

- أجل...إنه في المحاضرة الآن

يندهش إيهاب ثم يسأله مره أخرى

- لماذا لست معه؟!

يضحك بلال قائلًا

- لم أكن أريد حضورها

فينظر إليه إيهاب قائلًا

- لا يروق لي حديثك...أهناك شيء ما؟

يرد بلال مبتسماً

- لا لا...هيا بنا سنرحل

ثم يساعده على النهوض والسير إلى خارج المستشفى ويستقلان سيارة حتى شقتهما...جلسا لبعض الوقت يتبادلان أطراف الحديث حتى نهض إيهاب إلى غرفته ليبدل ملابسه. وبينما كان بلال مسترخيًا على إحدى الأرائك، رن جرس الشقة

نهض ليفتح بابها حتى فوجئ بندى تقف أمامه فتحدث بسعادة

- ندى أهلا بك...تفضلي

دخلت الشقة تنظر حولها ثم جلست على إحدى الأرائك بينما جلس بلال أمامها فقالت بهدوء

- بلال هل أنت بخير؟!

فابتسم إليها قائلاً:

- أجل أجل.. وأنتِ؟

فترد بحزن

- لا يهم.. أردت فقط أن أطمئن أنك بخير ثم نهضت تجاه الباب لتغادر.. فنهض ثم سار بضع خطوات إليها قائلًا

- انتظري...إلى أين؟

فتسأله ندى بهدوء

- لماذا لم تأت بالأمس كما أخبرتني؟!

يتنهد ثم يرد بضيق

- آسف يا ندى.. لقد كنت منشغلاً و...

تنظر إليه بعينين مترقرقتين وتقاطعه قائلةً

- وهل ما رأيتك عليه اليوم هو ما شغلك حقاً؟!

لم أكن أدرك هذا.. لم أكن أعلم أنني لست من أولوياتك.. ثم تقطع صوتهًا وتابعت

- كان يجب أن تخبرني بذلك من البداية

تنهد بلال ثم رد قائلًا

- ندى أنا فقط لم...

تقاطعه قائلةً بصوت مضطرب وهي تحبس دموعها

- توقف يا بلال توقف.. كم مرة أخبرتني أنك ستأتي وبعدها تقول لي أنك نسيت..

حتى في اليوم الذي خططنا لمهمة في النادي اتصلت بك لأذكرك بموعدك ووعدك...كل ما في الأمر أنني لا شيء بالنسبة لك يا بلال، صحيح!! أخبرني الآن بهذا كي يشفي قلبي ويتوقف عن التبرير لك مراراً كما يفعل بى دائماً

ثم تهطل الدموع من عيناها كأنها مطر.. فيحاول بلال تصحيح الأمور ولكنها لم تتحمل البقاء أكثر وغادرت..

خرج إيهاب من غرفته بعد أن سمع حديثها

- لماذا فعلت هذا؟!

يرد بلال

- إيهاب أنت لا تعلم شيئًا لقد كنت منشغلًا كثيراً الفترة الماضية وتلك الرسائل اللعينة التي استمر صاحبها في إرسالها واخفيتماها عني.. رأيتها بالأمس

صمت إيهاب ولم يتفوه بكلمه ثم وضع يده على رأسه وأصبح يتساءل هل نسي خالد ما طلبته منه!! ...حين عاد بنظره إلى بلال لم يجده. لقد غادر الشقة إلى عمله

*****

وصل بلال إلى المتجر فوجد الجد صالح جالسًا على كرسي صغير ويبتسم له قائلًا

- لقد جئت في الوقت المناسب

ابتسم بلال دون أن يتحدث فتابع صالح قوله

- منذ أن جئت إلى هنا وقد رأيت فيك ذكاءًا لا يستحق أن يُهدر.. لذا..قد قررت أن أعلمك شيئاً ينفعك، ستحبه..

فقط استمع لي وافعل ما آمرك به

فقاطعه صوت خالد الذي دلف المتجر فجأة لا يدرون من أين أتي..

- السلام عليكما.. ماذا تفعلان؟

يلتفت إليه بلال ثم يرد السلام فيبتسم صالح قائلًا

- أنت أيضا جئت في الوقت المناسب.. تعال إلى هنا.. ثم يعتدل في جلسته ويتابع

- بما أنكما أتيتما قبل أن أبدأ في الحديث.. فأنتما محظوظان..

ثم نهض من كرسيه ودخل إلى غرفته ثم عاد ببعض الكتب القديمة كأنها تعود لمئات السنين.. قام بوضعها على المكتب الموجود في إحدى زوايا المتجر ثم نظر خارجه ليرى الناس الواقفون في زحام أمامه.. فنظر إلى خالد قائلًا

- أغلق المتجر الآن.. واتبعني أنت وبلال إلى داخل غرفتي..

(12)

قـام الجـد صـالح بحمـل الكتـب ثـم عـاد بهـا مـره أخـرى إلى داخـل الغرفة...دلف بلال خلفه فوجد الغرفة تمتلئ بالكتب والأشياء التي لا يجد لها أي فائدة والتي قد تراكمت هنا وهناك وفي كل زاوية.. لم يكن المكان نظيفاً أو مرتباً بل كان يمتلئ بالغبار، حتى رائحة الغرفة لم تكن لطيفه..

وفي أحـد الأركان توجـد طاولـه ضخمه محاطة بـبعض المقاعـد وفي منتصـفها شـمعه كبيرة...جلسـوا جميعـاً حـول الطاولـة وأطفـأ الجـد صـالح الضـوء وأشـعل شـمعة لتتـوهج في الظلام.. ثـم نظر إلى خالـد وبلال وبدأ حديثه قائلًا

- لقد كبرت في السـن وتقدم بي العمر كما ترون.. لـذا.. أُريـد شخصًا أن يكون خليفتي ويكمـل مسـيرتي التي ربمـا لـن أسـتطيع إكمالهـا.. ثـم خرج من الغرفة لإحضار شيء ما

ينظر إليه بلال في دهشة ويتساءل همساً

- مـا هـذا الشـيء الـذي يريـدنا أن نتعلمـه؟ وهـل هـو مهـم لدرجـه أن يجمعنا ويغلق متجره ليوم كامل!!

سمعه خالد فاقترب من أُذنه وهمس ضاحكًا

- ولدرجة أن يشعل شمعه!!

ضحك الاثنان وقلبيهما ينبضان قلقًا.. حتى عاد العجوز منادياً بلال فانتفض من مكانه كأن لم يتوقع أن يناديه ورد مضطرباً

- نعم جدي

يفتح الجد بعض كتبه ويبدأ في إلقاء بعض الحروف والكلمات المقطعة والأرقام.. ثم يبدأ بالتحدث مع أحد ما.. ينظر بلال حوله ليستطيع رؤية ذاك الشخص الذي يتحدث إليه العجوز ولكنه لم يفلح.. فيرتعد قلبه ويعود بنظره إلى خالد الذي تغيرت ملامح وجهه هو الأخر...

عدة دقائق ويتوقف الجد عن إلقاء تلك الكلمات الغير مفهومه ومحادثه ذاك الشيء الذي لا يرونه.. ثم نظر إلى بلال قائلًا

-أنت ستأتي غدًا عند الواحدة بعد منتصف الليل، سأنتظرك، وسأعفيك من العمل في هذا اليوم، ثم يعود بنظره إلى خالد ويتابع

- أما أنت ستنتظر حتى اليوم الذي يليه...ثم ينهض من مكانه ويسير عده خطوات نحو المكتبة ويكمل

- الآن يمكنكما المغادرة

نظر إليه بلال ولم يتحدث ثم غادر.. يسير في الطريق برفقه خالد، فينظر إليه قائلًا

- لست مطمئنًا لهذا الأمر

فتنهد خالد ورد قائلًا:

- أنا أيضا

سأله بلال:

- هل يجب أن نذهب!!

نظر إليه خالد ثم أجاب

- أريد أن أعلم ما وراء هذا الرجل.. لك شرف التجربة الأولى يا صديقي

نظر بلال بعيداً ثم قال

- لست أدري ماذا يخفي عنّا

******

دخل بلال غرفته ثم فتح نافذتها وجلس على كرسي بجانبها يستند بيده علي حافتها يحدق في القمر ويتذكر ندى، لا يدري كيف يستطيع تصحيح الأمور..ولأول مرة يشعر بأنه يشتاق لها حقاً ويريد الذهاب إليها..

فالحياة بعيدًا عن من نحب بائسة، رغماً عنا أو برغبة منا فالأماكن التي يشغلونها في قلوبنا مع الوقت تتعمق ولا نستطيع أن نبددها، تماماً كزهرةٍ تكبر وبمرور الوقت تمتد جذورها متعمقة أكثر في التربة،حتى إن قطفها أحدهم محاولًا نزع الحب فإن جذورها تستمر بالنمو داخلياً ولا تبلى وحيث لا يمكن أن يراها أو يستشعر وجودها أحد.

ينظر بلال إلى ساعته فوجدها لم تتخطي العاشرة..

لم يلبث سوى عدة دقائق وكان بداخل النادي يسير باتجاه صالة التدريب الخاصة بندى.. فتح بابها ثم وقف يرمق المكان بعينه باحثاً عنها وهو لايزال ممسكاً بمقبضه..

فيلمحها جالسة في إحدى الأركان ثانيه ركبتيها تلف حولهما يديها في صمت.. تراقب الأطفال حولها ولا تقوم بتدريبهم كما كان يجدها تفعل كل مره.. اقترب منها ثم جلس بهدوء بجانبها واضعاً يده على إحدى خديها يمسح دمعه تكاد تنهال من عينيها...فنظرت إليه بحزن تملك قلبها ثم أغمضت عيناها فاحتضنها وعيناه تلمعان قائلًا

- أنا آسف يا ندى.. آسف، صدقيني أنا ليس لي علاقة بنهى، كل ما في الأمر أنها كانت فقط تتحدث عن كتابها الذي مع خالد، صدقيني أنتِ بالنسبة لي كل شيء..

لم أكن أقصد أبدًا أن يحدث هذا أو أن أبتعد ولكن !!..عدة أمور غريبة حدثت أبعدتني..الحياة في هذه البلاد صعبه جدًا.. أو صعبه معي أنا فقط، لا أدري.. أعلم أنه ليس لكِ ذنب في كل ما يحدث لي لذا ...فقد أتيت لأعتذر

ثم نظر إليها وهو ممسكاً برأسها بكلتا يديه يعيد شعرها للخلف ويمسح الدموع التي لاتزال مستمرة في الهطول دون توقف.. فيحتضنها مرة أخرى ويعتذر.. وبيديها المرخيتين عنه قامت باحتضانه هي الأخرى بقوه الحزن التي كانت تستشعرها ثم أعادت النظر مبتسمة

أدخل بلال يده إلى جيبه ثم أخرج علبة صغيرة قد اشتراها اليوم من إحدى المتاجر ثم أعطاها إياها وهو يبتسم قائلًا:

- هديه مُصالحه

ضحكت ندى والدموع لاتزال في عيناها

- من المؤكد أنها ستكون رائعة

ابتسم بلال وصمت قليلاً ثم نظر إليها قائلًا

- أُحبك يا ندى.. صدقيني، فقط كان الأمر خطأ

ابتسمت إليه:

- أُصدقك

صمت بلال قليلاً وكأنه يفكر ثم أمسك بيدها ونهض قائلًا

- هيا بنا..

تسأله بدهشة:

- إلى أين؟!

يرد قائلاً:

- ستعلمين حينما نصل

وخارج النادي يستقلان سيارة لتقف أمام نهر أوباكو فينظر بلال إليها بعينين تلمعين فرحاً

- أتحبين الماء؟

تهز رأسها مبتسمة:

- أجل

يرد بلال:

- إذاً هيا بنا

ثم أخذ بها إلى أحد الأشخاص الذين يعملون بقواربهم في ذاك النهر ثم استأجر منه واحدًا لبعض الوقت

ركب بلال القارب مع ندى وبدأ يتحرك إلى وسط الماء وهي ممسكه بكلتا يداها في حافته وهو ينظر إليها ضاحكًا

- أتخشين السقوط؟

فتجيبه ضاحكه:

- في كل مره أركب فيها قارباً أسقط في الماء

فتتعالي ضحكاته وسط النهر حتى دمعت عيناه وهو ينظر إلى عينيها التي باتت تلمعان ثم اقترب منها ليمسك بكلتا يديها قائلًا

- لا تثقي بالقارب.. تشبثي في يداي ولن تسقطي هذه المرة

تضحك ندى فيسألها بلال

- أتحبين البحر؟

فتجيبه:

- أجل

فيعود بلال للتحدث

- أتعلمين يا ندى؟! إن البحر قد جمع بشرًا وشتت شمل آخرين. إنه فقط يصطفي من يحب،، لذا... يجب أن نحبه

ضحكت ندى من قوله فهي لم تفهم ما يقصد بالتحديد.. ولا تعلم شيئا عن قصه ساندرامون.. تلك الجزيرة التي حكي له عنها والده أنها تصيب كل من يجرفه البحر إليها باللعنات حتى الموت

******

في اليوم التالي وأمام متجر المنحوتات.. يقف بلال عند الواحدة بعد منتصف الليل.. يلتفت يميناً ويساراً في شارع قد خلى من البشر وساده الهدوء.. يتقدم ليطرق باباً صغيرًا بالقرب من المتجر فيفتح له العجوز قائلًا

- ادخل..

يسير بلال بخطوات متثاقلة نحو الغرفة التي كان يجلس فيها بالأمس.. يستطيع الرؤية أسفل قدماه بصعوبة بالغه فالظلام قد ساد المكان ولأول مره.. يشعر بلال بقشعريرة تسري في جسده من شده الخوف.. لا يعلم ما الذي أتي به إلى هنا.. يسأله عقله مراراً

- ما الفائدة من كل هذا؟

إن كان قلبك لا يطمئن لشيء فلا تفعله ولا تجازف في أي محاوله لفعله..

ينفض عنه غبار أفكاره حين يجلس على أحد مقاعد الطاولة ويشعل العجوز الشمعة ويحضر كتبه من فوق أحد الرفوف.. ثم يعطى بلال ورقه وقلم فيمسك بها ولازالت القشعريرة تسري في جسده ويداه ترتجفان وهو يحاول إقناع نفسه أن تلك الرجفة ليست إلا بسبب

بروده الجو، تلي العجوز بعض الكلمات همسا من دون أن يسمعه بلال حتى جاءه ذاك الطيف الذي يتحدث إليه دائما ثم نظر إلى بلال وأعطاه بعض الأسماء قائلًا

- اكتبها الآن في الأوراق التي معك، استمر في نطق بعض الأسماء ومن بينهم "ماريوس" نظر إليه بلال متعجباً وسأله

- لِمَ هذه الأسماء بالتحديد؟

نظر العجوز إليه ولم يجيب ثم صمت قليلاً ونهض إلى أحد أركان الغرفة وتابع

- تعال إلى هنا..

سار بلال عده خطوات بداخل الغرفة تجاه الجد صالح ليرى نفسه واقفا أمام مرآه ضخمه قديمه الطراز ويعود صوت العجوز قائلًا

- انظر في هذه المرآة وسترى أحد أصحاب تلك الأسماء التي تسأل عنها فسأله بلال بقلق بعد أن راوده الشك:

- أهو بشر؟

ضحك العجوز بقوه زعزعت كيان بلال وأرعبته ثم رد قائلًا

- لا.. إنه ليس كذلك

تراجع بلال عدة خطوات للخلف بقلب ينبض بقوة حتى ارتطم بصندوق خلفه ثم قال بصوت متقطع

- لا.. لا أريد أن أراه.. أنت لم تخبرني أنك تريدني لفعل هذا

تحدث صالح بلطف قائلاً

- أتخاف يا بلال؟

قال بلال

- أنا لا أخشى شيئا ولكن!!

فقاطعه العجوز مره أخرى

- أغلق عيناك إذًا!!

(13)

ابتلع بلال ريقه وشعر بنبضات قلبه تتسارع بداخل صدره..ثم أغلق عيناه حتى انعكس فيهما ظلام جفنه فأصبح لا يرى إلا لونا أسود..عده ثواني كانت كفيله بأن يري المرآة التي رفض النظر بداخلها فيغمض عيناه أكثر ليتأكد أنهما مغلقتان..تبدأ صوره ما تظهر بداخل المرآة وتتلاشي حتى أصبحت واضحة تمامًا...

إنه جسد ضخم بقدر ما تستطيع الكلمة أن تصف..له شكل مخيف جدًا لدرجه أن بلال كان يتمني لو يستطيع فتح عيناه...لونه أحمر داكن مجعد البشرة أصلع الرأس...أنفه غليظ وعيناه سوداوتان ذو بريق أحمر..

يخرج من أُذناه أنيابا طويلة تمتد للأمام تشبه أنياب الفيل..يبتسم ذاك الوحش ذو الوجه المخيف بسذاجة ليكشف عن أنيابه المرعبة، فشعر بلال بضربات قلبه تكاد تحطم صدره لتخرج ثم فتح عيناه وتنفس بسرعة كأنه كان في كابوس واستيقظ منه ، يضع يداه علي الطاولة مستنداً ثم يتنفس بعمق ، نظر إلى العجوز قائلًا

- أهذا ما كنت تريدني أن أرى؟!

فرد العجوز

- أجل.. ثم سار بضع خطوات وتابع

- إن ذاك الذي رأيته هو معلمي وسيدي.. معه الكثيرون تحت إمرته.. إنه ملك، ولكنه لم يسمح لك سوي برؤيته فقط

ينظر إليه بلال قائلًا:

- وماذا بعد؟! أتدري ماذا جعلتني أرى؟

يرد ضاحكاً بسخرية

- أجل.. إنه جان.. ملك من ملوك الجان الذي يعمل معي

يسأله بلال

- وماذا تريد مني الآن؟!

يجيب صالح بصوت مرعب:

- تعلم السحر

يرد بلال:

- ماذا!! ومن أخبرك أني أريد؟!

يرد صالح

- معني أنك أتيت إلى هنا أنك تريد

سار بلال عده خطوات ثم التفت إليه

- ولكنك لم تخبرني أنك أتيت بى لهذا الغرض

قاطعه العجوز قائلًا

- إن السحر ليس كما تظن أو كما يتحدث به الناس.. إنه شيء رائع ويحقق لك الكثير من الرغبات.. فقط أنت تحتاج إلى من يخبرك حقيقته..

ثم سار عده خطوات باتجاه أحد الرفوف ثم أحضر من فوقه كتابا ألقاه على الطاولة أمام بلال قائلًا

- اقرأ هذا الكتاب وتعال غدًا، وغدًا لن أُعلمك شيء..

فقط سيكون يوم عملك في المتجر.. ويوم خالد هنا في نفس مكانك

تنهد بلال ولم يعقب على حديثه ثم تركه وغادر..

يمشي في الطريق عائدًا إلى الشقة شاخص العينان مما رأى ومضطرب القلب مما سمع وعقله يطرح عليه مئات الأسئلة التي لم يتوصل لأجوبتها.. ظل يتساءل بصوت مسموع

- يعلمني السحر!! ولكن ذاك الشيء سيء.. سيء جدًا

ثم يعود بذاكرته لخمسه وعشرون سنه مضت، ذاك التاريخ البعيد جدًا، أي قبل أن يولد.. ويتذكر حديث والده عن الساحر الذي أبعدهم بسحره إلى جزيرة تدعى ساندرامون وكيف عانى للخروج منها.. يتذكر أن ما هو مقبل عليه ليس هيّن.. يمسك الكتاب الذي أعطاه إياه العجوز في يده وينظر إليه قائلًا

- وماذا في ذاك هو الآخر؟ هل سيغير نظرتي للأمر؟! وهل حقًا يحوي الحقيقة التي لا يعلمها الناس؟

يصل إلى الشقة فيدخل غرفته ويجلس على مكتبه ليقلب في أُولى صفحات الكتاب

وبعد عده ساعات من القراءة..

يعيد بلال تفكيره في الأمر، يغمض عيناه ويغفو حتى الصباح.. إلى أن تشرق الشمس مره أخرى على أرض أُوباكو فيستيقظ فاتحاً نافذة غرفته على مصرعيها يستنشق هواء الشتاء البارد علّه يطفئ الحريق التي تنشب بداخله ما بين الحين والآخر.. ثم يبدل ملابسه ويتجه إلىٰ الجامعة كعادته.

وبعد الانتهاء يتجه إلى عمله وعند وصوله يقابل الجد صالح خارجاً يحمل في يده حقائب كبيره فارغة فيناديه بلال

- إلى أين؟!

يلتفت الجد صالح إليه قائلًا

- سأحضر بعض الأشياء للمتجر.. اذهب إلى عملك

فيتركه بلال ثم يدخل إلى المتجر ليستمر في بيع الكتب والمنحوتات وعقله منشغلًا بما حدث بالأمس يتردد في ذهنه بعض الأسئلة ويحدث نفسه

- هل ما سمعته عن السحر صحيح أم ما قرأت؟ هل تلك القصص التي يتداولها الناس وحديثهم عنه بالسوء أصح أم ما ذكر الكتاب الذي قرأته بالأمس؟ ولكن!! إن كان ما يقوله الناس مجرد أساطير وقصص يتداولونها.. كيف وقد حدث مع أبى!! يضرب رأسه بيده ثم يضغطه بقوه ويغمض عيناه ثم يفتحهما مجدداً ويقول بصوت أصبح مسموعاً للجميع من حوله

- حين يأتي سأسأله.. حين يأتي سأسأله.. يفتح عيناه ويفيق من شرود عقله وكابوسه الواقعي على صوت الناس خارج المتجر ينادونه يريدون شراء أشياء.. الضوضاء تعم المكان فيهدأ وذلك لأنها تشغله عن الضجيج الحقيقي بداخله، ويفاجئ بالجد صالح عائداً يحمل في كلتا يديه حقائب مليئة بالمنحوتات ثم يجلس على كرسي صغير في أحد زوايا المتجر يتنفس بسرعة.. صدره يرتفع وينخفض بشده فينظر إليه بلال قائلًا

- أخبرتك أن آتى معك، كنت سأحمل عنك كل هذا

ظل العجوز يتنهد دون أن يجيب فعاد ليحدثه بلال بحزم قائلًا

- أريدك..

يرد العجوز

- بعد العمل يا بلال

يتنهد بلال من الضيق ثم يتركه ويلتفت ليكمل البيع لعدة ساعات دون توقف.. وعند نهاية اليوم بعد أن غربت الشمس.. ها هو خالد يأتي.. فتركه بلال ليكمل العمل واتجه إلى غرفه صالح..

طرق الباب حتى سمع صوتا قد أذن له بالدخول

يفتح بلال الباب بهدوء ويدخل ليرى الجد صالح جالساً بالقرب من الموقد بعد أن أشعل فيه النار ويلقي به بعضاً من المواد التي تشبه الرمال فيزداد توجهًا، وبيده اليسري أحد الكتب يقرأ فيها بعض العبارات.. يقترب بلال قائلًا

- أريد أن اطرح عليك بعض الأسئلة

يشير إليه صالح قائلا:

- حسناً.. اجلس

يجلس بلال على إحدى المقاعد ثم ينظر إليه قائلًا

- لقد قرأت كتابك

فينظر إليه العجوز مبتسماً:

- حقاً!! وماذا وجدت؟

رد بلال

- لقد أقنعني بالأمر ولكن ...!!

قاطعه صالح قائلاً:

- ماذا !!

يرد بلال

- إنه منافي لِمَ أخبرني به أحدهم

فيسأله مره أخري:

- وماذا أخبرك ذاك الذي تتحدث عنه؟

يأخذ بلال نفساً عميقاً ثم يجيبه

- أخبرني أحدهم ذات يوم أن جميع من يستخدمون السحر يؤذون البشرية.. وأنا لا أُحب أن أكون مثلهم، هناك قصه حدثت منذ خمسه وعشرون عاماً هزت أرجاء موندراي والعالم و...

يقاطعه قائلًا

- أعلم بها.. ولكنى لست مثل هؤلاء.. ستعمل معي يا بلال وسترى

لم يجد بلال ردًا فتركه وخرج من الغرفة إلى المتجر ليستمر في عمله ليجد أن خالد قد رحل.. لا يدري إلى أين ذهب والمتجر قد أُغلق مبكراً، فيتعجب من الأمر حتى تذكر أنه يوم خالد في تعلم السحر فيبتسم ساخراً ثم يعود إلى الشقة ليفاجئ بخالد عند بابها فينظر إليه

- هل أنت ذاهب إلى صالح؟

يبتسم خالد بسعادة فيتابع بلال قوله

- الأفضل لك ألا تذهب.. لقد رأيت بالأمس أشياء مذرية

فنظر إليه خالد وهو يبتسم قائلًا

- لا بأس.. سأجرب، ثم ضربه على كتفه بخفه وتركه مغادراً

ابتسم بلال ثم رفع رأسه لأعلى وضحك وتعالت ضحكاته قائلًا

- ستري.. ثم نظر أسفل قدميه فوجد الرسائل قد تجمعت إلى أحد الأركان وقد كثر عددها.. فلم يلقي لها بالًا ثم دخل إلى الشقة وأغلق الباب بقوه فأطاح بها الهواء وجعلها تتطاير مبعثرة خارجًا..

جلس بلال على إحدى الأرائك يشاهد التلفاز ويتسامر مع إيهاب في عده أُمور وهو يعطيه أدويته التي اشتراها له وهو عائد من العمل.. ينظر إليه إيهاب بعينين تلمعين وثغر مبتسم، يرمقه بهدوء وهو يعطيه الأدوية ثم يذهب إلى الداخل ويعود بالطعام ليتناولاه سوياً قائلًا في نفسه.. أنا لم أرى مثله من قبل صديق.. ثم خرج عن صمته قائلًا

- شكرًا لك يا بلال

نظر إليه بلال متعجباً:

- على ماذا؟!

فيبتسم ثم يصمت.. نكزه بلال فصرخ، فينظر إليه ويقول ضاحكاً

- هذا لأجل أن تشكرني جيداً.. ثم جلس وتابع

- اسمعني يا إيهاب..

الصديق الحقيقي يا عزيزي ليس الذي تراه بجانبك وقت الضحك والمزاح والأوقات الرائعة.. بل من يقف بجانبك وقت الشدة أكثر مما يفعل وقت الفرح.. ثم يصمت قليلاً ويكمل

- إياك أن تظن أن ثمن أدويتك والمستشفي ووقوفي بجانبك فَضل منى.. إنه واجبي تجاهك وحق من حقوقك عليّ.. إن لم افعل هذا فلا أستحق لقب صديق.. إن الصداقة أكبر مما يظن الكثيرون وأغلي من أن تقدر بثمن.. ثم اقترب منه واحتضنه، ثم أعاد النظر إليه قائلًا

- كن بخير فقط.. كل ما أريده منك هو أن تصبح بخير..

لولاك الآن ما كنت هنا بينكم.. ولتهت في هذه البلاد بعد تركي لمبنى ميشاند.. أتجد لهذا ثمنًا؟!

ابتسم إيهاب ثم هز رأسه نافيًا..

التفت بلال على صوت هاتفه يرن.. إنها ندى!! ابتسم بلال بحب دون أن يشعر ولكن إيهاب لاحظ بسمته فابتسم هو الآخر قائلًا

- سأذهب الآن

ضحك بلال ثم ناداه قائلًا

- عُد يا أبله

فالتفت إليه إيهاب مبتسماً

- أريد النوم.. ثم تركه وغادر إلى غرفته

*****

(14)

أصبحت الأيام تمر وتتوالى وبلال كل يوم يتلقى علمًا جديدًا من العجوز ورغم أنه لم يكن مطمئنًا لكل ما يفعل إلا أنه أحس بشيء ما يجذبه نحو هذه الكتب دون أن يتحكم في نفسه وكأنه مدفوعًا لهذا الفعل قسراً لا اختياراً...

وفي أحد الأيام وبينما كان يقف في المتجر فإذا بالعجوز خارجًا منه، فيستوقفه صوت بلال كالعادة منادياً

- هل أنت ذاهب لإحضار منحوتات؟

يرد صالح دون أن يلتفت:

- أجل

يسأله بلال:

- هل آتى معك؟!

يرد بسرعة: - لا

يقول بلال:

- لِمَ لا.. إنها ثقيلة عليك وفي كل مره تأتي متعباً

يرد العجوز قائلا:

- لا تقلق. ثم يتركه ويغادر

يشعر بلال بشيء غريب فينتظره حتى يقطع مسافة ويخطو عدة خطوات بعيداً عن المتجر ثم يسير خلفه إلى المكان الذي يذهب إليه كل مره ولا يريد أن يصطحبه معه.. فقد أصبح الآن الفضول بداخله هو الدافع الأقوى للسير خلفه..

ظل العجوز يسير في طريقه لمسافات بعيده حتى خرج من المدينة.. ثم دخل إلى إحدى الغابات المظلمة على أحد جانبي الطريق.. اتسعت عينا بلال حين رأى هذا المكان الذي لم يتوقعه.. وزاد الفضول بداخله أكثر.. ورغم ضربات قلبه التي تزداد إلا أنه طبع أولى خطواته داخل محيط الظلام ذاك متجاهلًا كل ما يشعر به.. ظل العجوز يسير وبلال خلفه بمسافة تمكنه من رؤيته بوضوح.. استمر في السير حتى وصل لإحدى البيوت القديمة التي صنعت من الخشب العتيق

انتظر بلال خارجًا مختبئًا خلف إحدى الأشجار الكبيرة حتى خرج العجوز بتلك الحقائب المليئة بالمنحوتات.. تعجب بلال وأصبح يتساءل

- إنه لم يمكث طويلاً في ذاك المنزل.. وكيف هو من يصنع تلك المنحوتات ولم يستغرق بالداخل إلا عدة دقائق..؟!

ظل يراقبه في صمت وهو يسير بخطواته البطيئة المتثاقلة ويحمل الحقائب التي يضعها على الأرض بين الحين والآخر ثم يعود لحملها ويتابع السير حتى خرج من الغابة، فعاد بلال إلى ذاك المنزل وفضوله يكاد يقتله بأن يرى ما فيه فقرر الدخول إليه..

وبقلب يرتجف تقدم بلال نحو باب المنزل ممسكاً بمقبضه الخشبي الذي يبدو أنه يعود لمئات السنين ويتساءل بدهشة

- كم كان عمر ذاك العجوز حين بناه...؟

يفتح الباب بهدوء فيفاجئ ويندهش حين يرى جميع الأشياء تتحرك من تلقاء نفسها، تتسع عيناه حين يري الأخشاب تنحت في حين لا يوجد هناك نحات وفي أحد الأركان مكنسة تنظف المكان من دون أن يلمسها أحد..

دلف بلال إلى داخل المنزل بخطوات متثاقلة يراقب كل شيء بدهشة دون أن يتحدث، يجد قطعه خشبية أسفل قدماه وتتحرك وكأن أحداً ما يجذبها فيتراجع بلال للخلف عدة خطوات حتى ارتطم بشيء ما خلفه.. التفت ببطء وقلبه ينتفض فوجد درجًا يتجه إلى أسفل.. يحدث نفسه متعجبًا

- أهناك شيء تحت الأرض!!

*****

في نفس ذاك الوقت كان فيه العجوز قد وصل إلى المتجر ليرى خالد يقف هناك ويباشر عمله.. فيسأله

- أين بلال؟ لقد تركته هنا منذ ساعة

يرد خالد

- لست أدري.. لقد كان هنا

يتمتم العجوز بكلمات لا يسمعها خالد ثم يدخل إلى غرفته غالقاً الباب بقوة بعد أن ترك الحقائب لخالد يخرج منها المنحوتات ليزيل الأتربة عنها ويعرضها على الرفوف

*****

في منزل الغابة ينزل بلال الدرج بحذر بالغ خطوه وراء الأخرى حتى استطاع الوصول إلى آخره ليقف مذهولًا دون حركه أو قول.. يشاهد حوله مصنعا كاملًا للمنحوتات، ينظر يمينا فيري أخشابًا تقطع.. وعلى يساره تنحت.. وفي مكان آخر تطلي.. ثم ينظر بعيدًا إلى إحدي زوايا المكان فيري فرشاة ترسم نقوشًا غير مفهومه عليها.. وفي النهاية يؤتى بكيس لا يدري ما به فيوضع بداخلها وتغلق كأن لم تكن مثقوبة من قبل.. يحدث بلال نفسه قائلًا

- أهذا ما كنت تخفيه يا صالح؟!

وبمجرد نطقه هذا الاسم يتوقف كل شيء عن العمل.. ثم يسمع أصوات تهشيم لا يدري من أين منبعها.. وعلا صوت الأشياء المتساقطة على الأرض.. يشعر بأن المنزل يكاد يتحطم فيصعد الدرج بسرعة ويشعر أنه يرتطم بأشياء تحوم حوله لا يدري ما هي ولا يستطيع أن يتوقف ليراها.. كل ما يدري به الآن ومتأكد منه أنه خائف وبشدة

نبضات قلبه تتسارع وتنفسه يزداد، صدره يرتفع وينخفض بقوة. يستند على الحائط المجاورة الدرج وهو يصعد وينظر حوله وغبار من

سقف المنزل ينهال، الضوء يكاد يختفي من المكان حتى أصبح كل شيء مظلمًا، خرج بلال من المنزل راكضاً ثم التفت لينظر خلفه فرأي الباب يغلق خلفه بقوة

تراجع عدة خطوات للخلف فتعثر بأحد جذوع الأشجار فسقط أرضاً وهو يضع يده على صدره ثم عاود النهوض وظل يسير في الغابة بسرعة متعثراً بأغصان الأشجار التي ملأت المكان فيسقط ثم ينهض حتى أحس بشيء ما يسير خلفه، التفت لينظر فوجد فتاة ذات وجه شاحب وعينان شاخصتان قد صوبتهما تجاهه، جسدها ضخم للحد الذي جعل بلال يشعر بأنها ليست بشراً مثلنا، نظر خلفها فوجد لها ذيلا يشبه القردة فاقشعر جسده ثم التفت راكضاً يبحث عن مخرج تلك الغابة في كل الجهات وهي تركض خلفه ولا تنوي تركه، وكأن تلك الغابة هي مسكنها الذي تدافع عنه

أستمر بلال في الركض حتى تعثر بأحد الأغصان مرة أخرى فسقط أرضاً ثم تدحرج من أعلى منحدر ليجد نفسه في بركه من الماء الراكد نظر تجاهها فوجدها لازالت تحدق إليه، تقف عند حافة البركة وتمد يدها صوبه، تسير بضع خطوات ببطء تجاهه وكأنها تريد قتله.. ثم أسرعت في خطاها وقفزت إليه فانتفض من مكانه خارجًا من البركة فسقطت في الماء، سار نحوها ثم أمسك برأسها وقلبه ينتفض خوفاً، أصبح يضغط رأسها أسفل الماء، هو يخشى القتل ولا يفكر في قتلها بل يحاول إضعافها حتى يستطيع الهروب منها..

عدة دقائق من المقاومة حتى هدأت وسكنت فتركها وببطء تراجع للخلف بهدوء وقلبه لازال يرتجف كأن لم يهدأ من قبل ثم خرج من البركة وقد ابتلت جميع ملابسه..

سار بضع خطوات بعيدًا ثم نظر خلفه فوجدها تحاول النهوض من جديد وتنظر إليه في غضب وكأنها تكِن عداء الدنيا له، أعاد بلال النظر أمامه ثم بدأ في الركض فارتطم بشيء ما..ومن دون أن ينظر تحسسه فشعر بشيء بارد لزج في يده، سحب يده ثم نظر إليها فوجدها ملطخه بالدماء فرفع عيناه لينظر إلى ذاك الذي أمامه فإذا هما شخصان بأنياب ومخالب كالمفترسات ملابسهم ملطخه بالدماء وفي أيديهم أدوات قتل حادة..وقف بلال شاخص العينان حتى سمع صوت صياحهم الذي يشبه صهيل الخيل فصرخ من شده رعبه وارتعد قلبه وتابع الركض بعيداً ونبضات قلبه تزداد يتنفس بسرعة ويستمر في الركض، يلتفت خلفه ثم يعود لينظر للأمام ويستمر حتى استطاع الخروج من الغابة بعيدًا إلى الطريق متجهاً إلى المدينة عائدًا إلى المتجر قبل أن يلاحظ العجوز غيابه

*****

وبعد نصف ساعة من الركض الذي كان يتلوه سير.. وصل بلال إلى الشقة ثم بدل ملابسه المبتلة سريعاً وعاد إلى المتجر ليرى خالد جالسا على أحد المقاعد وسط المتجر يمسح الغبار عن بعض الأشياء وينظفها التفت إلى بلال حين لاحظ وجوده ثم قال

- أين كنت؟

يصمت بلال قليلا ثم يجيب

- كنت...وما شأنك؟

يضحك گعادته خالد قائلًا

- ليس شأني.. لقد سألني عنك جدك

تنفس بلال بعمق ثم وضع يده على جبينه قائلًا

- وماذا كان يريد؟

رد خالد:

- لست أدري

تجاهل بلال حديث خالد ثم جلس في أحد أركان المتجر بعقل شارد ويتساءل عما رأي.. وعن ما اخفاه عنه العجوز.. فلا يجد أجوبه لكل أسئلته ككل مره.. قطع حبل أفكاره صوت العجوز حين خرج من غرفته ليجلس معهما.. ينظر بلال إلى عقارب ساعته فيجدها لاتزال تقف عند السابعة مساءاً.. فيتذكر كتابه الذي نسيه بالأمس في المتجر فينظر إلى العجوز ويسأله

- جدي!! أتذكر أين كان الكتاب الذي كان هنا؟

يرد العجوز

- يا بني.. لقد تقدمت في السن كما ترى وذاكرتي أصبحت ضعيفة جدًا لم أعد أتذكر شيء

يصمت بلال قليلاً ويفكر في حيله يبدأ فيها الحديث مع هذا العجوز عن ما رآه اليوم.. فيستمر في صمته عدة دقائق يراقب خالد وهو يزيل التراب عن المنحوتات والتماثيل ويقول

- كم هي رائعة.. هل أنت من تصنعها يا جدي؟

يرد الجد

- أجل يا بني.. إنه عمل شاق

ينظر إليه بلال وهو يفهم كل شيء.. فهو الآن يعلم أنه كاذب.. فصمت قليلاً ثم قال

- ولكن مثل هذه الأشياء تستغرق وقتاً طويلاً لصناعتها وأنت لا تلبث إلا ساعة أو ساعتان وتعود بالكثير منها

تنهد العجوز ورد قائلًا

- هنا يأتي دور السحر في مساعدتي.. ففي بعض الأحيان استخدم ذاك السحر في عمل كل ما أُريد دون تعب.. كل ما أفعله هو أنني أذهب لإحضار المنحوتات فقط.. ثم يعود بنظره إلى بلال ليسأله

- أين كنت؟

رد بلال

- لقد كنت أحضر بعض الأشياء من مكتبه بجانب الجامعة.. أهناك مشكله؟

يرد العجوز:

- لا.. وهو يستشعر كذب بلال هو الآخر في صمت

*****

عند التاسعة مساءاً يخرج بلال من المتجر بعد أن انقضت ساعات عمله مغادرًا برفقه خالد كما يفعل كل مره.. يسير بصمت أيضاً گعادته، فينظر إليه خالد محدثاً

- ماذا بك يا بلال؟!

يلتفت بلال إليه قائلًا

- أنا لست مطمئنًا لهذا الرجل ولست مقتنعًا بما نفعل

ينظر إليه خالد قائلًا:

- كيف؟

فتنهد بلال ورد قائلًا

- لقد تبعته اليوم للمكان الذي يحضر منه الأشياء التي يبيعها.. كان في غابه مهجورة بعيدة عن كل البشر.. بداخلها منزل قديم.. وداخل المنزل ذاك رأيت ما لم أره من قبل...خارجها طاردتني وحوشاً أشاعت في قلبي الرعب، أنا حتى الآن لازلت أستطيع رؤيتها أمام عيناي...الأمر لا يطمئن

ثم وضع يديه المتجمدتين في جيبه ويلفح وجهه هواء بارد فأصبح يرتعد من شدته فتوقف عن السير ثم نظر إلى خالد وتابع

- لقد أصبحنا نتعلم السحر.. ونسير في طريق مليء بالغموض.. كما أن هذا الرجل يخفي عنّا كثيرًا مما لا يريدنا معرفته..

قال خالد

- أنا لم أرى منه سوءًا.. ومادام يتعامل بالحسنى سأظل أعمل معه

نظر إليه بلال بغضب قائلًا

- أنت دائماً تحب تجاهل الأمور.. تحب التغاضي والاستسلام والسير مع التيار مهما كان الطريق الذي يجرفك إليه..

نظر إليه خالد قائلًا

- أليس هذا أفضل من أن أؤلم رأسي في ذاك الهراء الذي تفكر به دائماً وأضع للأمور حجمًا أكبر منها وأُرهق نفسي في كل شيء يستحق أم لا..

يتنهد بلال ثم يصرخ في وجهه قائلًا

- ليس هراءًا.. أتفهم يا خالد.. ليس هراءًا وستري

يرد خالد بصوت مرتفع

- أتركني أرى...أتركني وتوقف عن هذا

نظر إليه بلال بضيق ثم تركه وغادر.. عاد خالد إلى الشقة بينما سلك بلال طريق النادي

وفي مقهاه.. جلس يحتسي كوبًا من القهوة برفقه ندى.. ذاك الملاك الصغير الذي يهرع إليه كلما أثقلت الحياة.. ينظر إلى عيناها الرماديتان ويبتسم، يشعر وكأن العالم كله يهدأ حين يكون برفقتها

رن هاتفه فمد يده إلى جيبه وأخرجه ليري من المتصل فيفاجئ بأنه خالد.. فيضع الهاتف بجانبه ويتركه وقد تغيرت ملامح وجهه إلى الضيق ثم يتنفس بعمق فتسأله ندي

- ما بك يا بلال؟ لماذا لا تجيب على هاتفك؟!

ينظر بلال إليها قائلا: - لا أريد

تسأله بقلق: - أهناك شيء ما؟

أخذ بلال نفساً عميقًا ثم نظر بعيدًا وقال

- كل ما في الأمر أننا لربما نسير في طريق خطأ. أنا أريد أن أتأكد من شيء وهو يريد السير في الطريق أيًا كانت نهايته

ثم صمت قليلًا وتابع

- أنا أحبه.. لا أريد له السوء أبدًا. لكنه دائما يسيء فهمي

نظرت ندى صوب عينيه في قلق قائله

- أي خطأ يا بلال؟

رد قائلًا

- ليس الآن يا ندى. ليس الآن، الأمر يصعب شرحه. ثم نهض من مكانه فأمسكت ندى بيده قائلةً

- أرجوك. اجلس وأخبرني

فرد قائلًا

سأخبرك فيما بعد. أما الآن فيجب أن أعود، لدي عمل وجامعه غدا.

أتيت فقط لأراك. ثم انحني ليقبلها أعلى جبينها مبتسماً

- الأهم أن أراكِ دائمًا بخير

أفلتت يدها التي كانت تمسك به ثم تركها وغادر. تجلس في مكانها تراقبه وهو يبتعد عنها شيئاً فشيئاً والقلق يزداد بداخلها لا تدري ما الخطأ الذي يتحدث عنه.. تعيد تكرار عبارته

" نحن لربما نسير في طريق خطأ "

ثم تضع يدها أعلى جبينها وتتنهد قائلة

- حفظك الله يا بلال

*****

(15)

دخل بلال الشقة ليرى إيهاب وخالد يقفان في شرفه الردهه ينظران إلى الشارع ويتحدثان.. أغلق الباب فأصدر صوتاً جعلهما يلتفتان إليه فأسرع خالد إلي بلال قائلًا

- هل أنت بخير؟ أين ذهبت؟!

ينظر إليه بلال قائلًا

- لم أفعل إلا ما طلبه مني. تركتك يا خالد

ثم دخل إلى غرفته مغادرًا إياه

*****

عند الساعة الرابعة في عصر يوم شتائي عاصف ذهب بلال إلى المتجر كعادته ليجد خالد واقفاً يتحدث إلى أحد الزبائن عن شيء ما. فسأله بلال

- أين الجد صالح؟!

فرد خالد:

- لقد خرج منذ قليل

فصمت بلال قليلا ثم قال

- إن غرفته لا تروق لي سأدخل لأرتبها وأنت استمر في عملك

فهز خالد رأسه موافقًا

******

فتح بلال باب الغرفة ودلف إليها فوجد الغبار يعمها والأشياء المبعثرة هنا وهناك قد ملأت المكان. وكثيرًا من الأقمشة مترامية في أنحاء الغرفة فيتساءل بغرابه

- ماذا يفعل بها؟!

بدأ بلال بدفع الأشياء ثم يقوم بالتنظيف أسفلها ومسحها جيدًا لأزاله الغبار الذي يملأها ثم يعيدها لنفس المكان الذي كانت به..

يرى في أحد أركان الغرفة بعض الكتب الممزقة وحقائب لا يدري بما تحوي فقام بحملها إلى خارج الغرفة وقام بالتنظيف حتى إذا انتهي أعادهم جميعا. استمر تنظيف الغرفة أكثر من ساعة ونصف.

حتى انتهى مما كان يفعل فأصبح ينظر إلى المكان مبتسماً سعيدًا بما فعل. رفع حاجبه من الدهشة حين وجد أنه قد نسي رفوف المكتبة دون تنظيف.

فقام بالوقوف على أحد الكراسي الموجودة بالغرفة وحمل الكتب جميعها على ساعديه وبينما يحاول النزول من فوقه سقط أحد الكتب على الأرض فتمزق وأصبحت ورقاته تتناثر في جميع أنحاء الغرفة حتى عمت أرجاء المكان..

نزل بلال من فوق الكرسي بسرعة إلى الأرض وقلبه ينبض قلقًا يعيد ترتيب الأوراق في الكتاب قبل أن يأتي الجد ليجده قد مزق كتبه الثمينة. وبينما كان يفعل ذلك لمح بعينيه أوراقًا خاصة..

إنها لأحد الأشخاص، أمسك بإحداها مندهشا شاخص العينان حين رأي صورة الجد صالح ومكتوب بجانبها اسم غريب...لم يكن صالح كما كان يخبرهم.. بل اسمه الحقيقي أرتشميج، يقلب في الأوراق بين يديه فيجد جرائم لا حصر لها ولا عدد.. ومن بينها يفاجئ بلال بجزء مأخوذ من جريده يحكي قصه ساندرامون ويرى صوره والده الذي كان من ضمن الأشخاص الذين أدي بهم السحر إليها وبعض الأشخاص الذين لا يعرفهم...

أغلق بلال الكتاب بدهشة وعقل شارد وقد سبح في عدة أفكار حتى أصبح غارقاً في صدمته، أخذ الأوراق بين يداه، سمع صوتاً يأتي من الخارج فضحك مستهزئا وهو يقول في نفسه

- السفيه صالح...لست أدري كيف سمى نفسه بهذا الاسم الذي لا يليق بأمثاله

ثم خرج وهو ممسكاً بتلك الأوراق في يداه ليفاجئ بخالد وارتشميج يتحدثان خارجاً في منتصف المتجر.. ينظر بلال إلى خالد ويقول بغضب قد بدا على مظهره

- ابتعد عن هذا الذي لا تعرف حقيقته

ينظر إليه خالد متعجباً ثم يسير عدة خطوات نحوه ممسكًا بذراعه يهزه ويقول بدهشة

- بلال!! ماذا تقول؟

يدفعه بلال بيده جانبًا ويرد قائلًا

- أصمت أنت. ثم يعود بنظره إلى ارتشميج ويتابع قوله

- من أنت بالتحديد؟ هل أنت الجد صالح أم أرتشميج؟ هل أنت الرجل الطيب الذي عرفناه في البداية أم الساحر الشرير صاحب مؤامرة جزيرة ساندرامون؟! ولماذا أنا بالتحديد من اخترتني لتفعل بي كل هذا؟ هاا...هيا أخبرني!!

ينظر إليه الرجل ويقول بصوت قد علا وتقطع

- من سمح لك بالدخول إلى غرفتي في غيابي والبحث في أوراقي. من سمح لك؟!

فضحك بلال مستهزئا ثم قال

- كنت أنظف لك المكان لتعيش في مكان نظيف. ولكني لم أدرك أنه كان يجب عليّ تنظيف المكان منك أنت

صمت ارتشميج ولم يتفوه بكلمه وكذلك خالد كان يقف مذهولًا.. قام بلال بالسير حول ارتشميج قائلًا

أنت ساحر يا ارتشميج.. ولست ساحر خير كما أخبرتني.. ليس هناك خير في السحر.. أنت ساحر شر، أتعلم لماذا؟!

ثم علا صوته وتابع

- لأنك أنت من دبر مكيدة جزيرة ساندرامون.. التي كاد آلاف أن يقتلوا بسببك فيها...محال للقاسي أن يلين.. أتفهم؟!

تقدم العجوز ثم أمسكه من ذراعه وضغطه بقوه ثم أخرج عصاه من عباءته وصاح في المكان ليتجرد من رداء الطيبة والضعف ليظهر على

حقيقته. يصرخ فتغلق أبواب المتجر بقوة تجعل الكتب تتطاير في المكان ممزقه أوراقها، الضوء أصبح يشتعل كأنه نار أوقدت ...كان بلال يراقب أفعاله وقلبه ينبض بقوه. داخله منهار ولكن الثبات يعلوه صاح ارتشميج قائلًا

- أجل!! هذه حقيقتي، أسمى ليس صالح. وأنا ساحر شرير. أحب الشر. أكبر به وأرتوي منه. مثلت الضعف حين قابلتك لآتي بك إلى هنا. أتعلم؟! لقد كنت أتأذى حين أُحدثكم بلين قول أو أعامل أحداً بالحسنى ...ولكن هذا رداءًا عشت اختبئ بداخله لسنوات لأخدع البشر. تلك المخلوقات السفيهة التي أكرهها..

سار بضع خطوات حول بلال ثم تابع قوله

- يومًا بعد يوم أقنعتك أن تعمل معي في السحر. وأنت وافقت كمجنون مُخدر، كنت أجذبك لهذا العمل بطريقتي. أتعلم لماذا أتيت بك إلى هنا؟!

توقف عن السير ثم ضحك بقوه زعزعت كيانه

- أتيت بك لانتقم من والدك الذي دمر مخططاتي الماضية. هل أخبرك سرًا آخر؟!

ثم نظر حوله في المتجر وفتح يداه على مصرعيهما قائلًا

- كل تلك المنحوتات والتماثيل التي تراها بداخلها سحر. وسأستمر فيما أفعل. لن تستطيع منعي ولا أي حد سيستطيع بعد اليوم، لقد

تماديت في تعلمي السحر حتى أصبحت لا أقهر. هيا تفضلوا من سيوقفني؟!

وضع بلال يده على رأسه ليتذكر حينما كان في منزل الغابة أنه رأي بعض الأكياس التي توضع بداخل المنحوتات ويتم إغلاقها. فأدرك أن هذا هو السحر، فخرج من إطار أفكاره مره أخرى على صوت الساحر حين صرخ قائلًا

- أتعلم شيئا آخر؟! ...ثم صمت قليلاً وتابع

- إن علم أحد بهذا السر سيكون آخر يوم لك على هذه الأرض

كان بلال يستمع له في صمت وصدمه تملكت قلبه لقد فوجئ بكل ما كان يسمع ولكن صدمته الكبرى حين علم أنه تم استدراجه إلى هنا للانتقام من والده

صاح الساحر مره أخرى في وجه بلال قائلًا

- أرني ماذا ستفعل أيها اللعين؟!

فرد بلال بقوه

- مستحيل أن أعمل معك. أنا لن أكون هنا بعد اليوم

صاح ارتشميج قائلًا

- ستعمل معي رغمًا عنك. وإلا سيكون مهلكك على يداي، ولا تنسى أنك من اخترت الموت بيديك

التفت بلال إليه قائلًا

- لا يهم.. أنا ميت منذ أن جئت إلى هذه البلاد ورأيتك. لم يعد بدخلي شيء جميل أو شغف تجاه أي شيء. حتى طموحي في العلم فقدته. تلك الراحة التي كنت أشعر بها في موندراي تلاشت منذ أن غادرتها. لا يهمني ما ستفعل.. اقتلني.. أفعل كل ما تريد فعله

ثم سار بضع خطوات ليخرج من باب المتجر فاستوقفه صوت ارتشميج الذي صرخ فأغلق الباب بسحره فالتفت إليه بلال بغضب قائلًا

- ماذا تريد مني يا لعين؟

فقال الساحر بعد أن ضحك ساخرًا

- لقد غيرت مخططي.. أنا لن أقتلك أنت. ولكن!! هل تعلم من سأقتل؟

استمر بلال في النظر إليه بغصب دون أن يتحدث، فضحك بقوه ثم قال

- سأقتل عائلتك يا سفيه فانظر ماذا ترى

نبض قلب بلال بقوه حين سمع تلك الكلمات وشعر أن قدماه لم تعد لهما القدره على حمله، تابع الساحر قوله

- لا تنسي أنك أعطيتهم إحدى منحوتاتي التي تحمل السحر المطلوب

ضحك بلال مستهزئا حين شعر بحجم سذاجته وفي نفس الوقت أصبح الأمر خارج سيطرته ثم قال

- هه وهل سيؤدي سحرك هذا بهم إلى جزيرة أخرى كما فعلت من قبل؟

فضحك الساحر ثم قال

- لا.. بل سيكون من السهل عليّ فعل أي شيء بهم.. لقد تطورت في سحري وأستطيع إخضاع العالم لي دون إرسالهم إلى جزيرة أو تحويلهم إلى وحوش بَلهاء...سأجلهم بشرًا بُلهاء.. وهذا أشد انتقامًا، إن كنت تعلم..

نظر إليه بلال بغضب دون أن يتحدث فاقترب منهما الساحر وقال بهدوء:

- لا أُريد أن يعلم أحدًا بشيء مما ذكرت.. أنتما الاثنان الآن ستنفذان لي كل شيء.. ثم عاد بنظره إلى بلال قائلًا

- وأنت بالأكثر

ثم أدار لهم ظهره وفتح ذراعيه قائلًا

- إن علم أحد شيئاً عن هذا فسيحدث ما تخشونه.. سأنتقم منكم گمجنون ولن أرحم أحدًا

ثم أشار بيده ففتحت الأبواب مرة أخرى وعاد الهدوء إلى المكان فصاح فيهم بقوه

- هيا..اذهبا وغدًا سأنتظركم في المتجر للعمل.. لا وقت للتفكير في الأمر..

سار بلال إلى خارج المتجر برفقه خالد فاستوقفه صوت الساحر من جديد، التفت إليه بلال فابتسم ارتشميج قائلًا

- نسيت أن أخبرك أمراً هاما يا عزيزي..

أنا صاحب الرسائل التي كنت تتلقاها منذ مجيئك إلى هنا، وأنا صاحب سيارة الأجرة التي أوصلتك إلى مبني ميشاند وأخبرتك ألا تثق بأحد في هذه البلاد، فضميري يحتم عليّ دائماً بأن أمنح ضحاياي ولو جزءا صغيرًا من المساعدة.. ولكنك لم تستمع للنصيحة، ثم أغلق الباب في وجهه بقوه فخلف من وراءه غبارًا ملأ الطريق...

*****

(16)

التفت بلال إلى خالد الذي كان يقف خلفه وظل ينظر إليه دون حديث.. فصدمه قلبه كل ثانيه تزداد مع كل حقيقة يسمعها.. جيد أن هذا الساحر أغلق فمه وبابه لتتوقف تلك الصدمات التي تصيبهم كالسهام المسمومة، يتنفس بلال بصعوبة فهو المقصود من كل هذا.. الأمر معقد، فليس بإمكانه الآن البوح لأي أحد أو طلب المساعدة...ينظر إليه خالد في ذهول هو كذلك لا يجد ما يقوله.

جلس بلال على أحد الأرصفة ليراقب المارة في صمت، عقله شارد في ضواحي المدينة.. يتذكر أول يوم جاء فيه إليها.. يتذكر الأماكن التي ذهب إليها.. يتذكر الرسائل والأشياء العجيبة التي كانت تحدث معه، ثم يعود بنظره إلى المتجر المغلق بابه ويتمني لو لم يكن موجودًا على هذه الأرض.. يشعر بغليل داخل صدره يزداد ويختنق كلما تذكرت هذا الساحر وكيف أخلص له في العمل والمساعدة وكيف استغل السفيه طيبته وقربه منه.. يدور في عقله ما يدور من آلاف الأفكار الأخرى، يقطع تفكيره صوت خالد قائلًا

- سأعمل معه

يلتفت إليه بلال بسرعة مندهشًا مما قال ثم يضحك ويعقب على قوله مستهزئا

- بعد كل ما فعل؟ أتقول هذا بدلاً من أن تبحث معي عن حل لما نحن فيه؟

يرد خالد

- إنني أحب هذا العمل وسأستمر فيه

قال بلال بحزن

- هل ارتويت من الشر؟ ... خالد!! أنت لست كذلك

يرد خالد: - بل أنا كذلك

سأله بلال بصوت متقطع:

- أتخشي أن تُقتل؟

رد خالد قائلًا

- لا.. ثم صمت قليلا والتفت إليه قائلًا:

-وما شأنك؟

نظر إليه بلال بحزن قائلًا

- كما تشاء...كما تشاء، ثم تركه ونهض مغادرًا

عاد كلاهما إلى المنزل وكل منهما يفكر فيما سيفعل..

يهرع إليهما إيهاب ويقول بقلق

- ماذا بكما؟!

فينظر كلًا منهما إلى الآخر دون كلمه ثم يعودان بنظرهما إلى إيهاب وعيناهما تحمل بين رمشيها ألف حديث يريدان التحدث به ولكنهما ملجمان، لا يستطيع أياً منهم البوح بسر كالجمر في قلوبهم.. دخل بلال

إلى الغرفة تاركاً إيهاب يموج في قلقه.. ثم وضع رأسه على الوسادة لينام ويهرب من الواقع الذي أصبح كابوسا يطاردهم كل حين..

*****

في الثالثة فجرًا يجد بلال نفسه ذاهبًا لبيت ذاك الساحر تلقائياً يبحث عنه.. وصل إلى المتجر ثم دلف إليه، بحث في كل الأماكن ولم يجده، وفي أثناء بحثه سمع صوتاً لا يدري من أين منبعه " إنه ليس هنا " فيضطرب جسده بعد سماعه ذاك الصوت وبعد إدراكه أنه في المكان وحده ينظر حوله في خوف وترقب ثم يتراجع عدة خطوات للخلف ويخرج من المتجر، وكلما ابتعد خطوة وجد كثيراً من الكلاب السوداء تحيط به...

ورغم أنه لم يكن يراها من قبل في هذه المدينة إلا أن عددها إزداد وبكثرة، فأسرع في خطاه ليتلاشاها ولكن أعدادها تزداد من حوله، تلاحقه ويتعثر من هول سرعته حتى سقط أرضًا.. ووجد جسده ملتصقاً بالأرض كلما حاول النهوض لم يستطع، كأنه مقيد بسلاسل العجز، التفت حوله الكلاب وبشراسة بدأت في تمزيق جسده، يلتهمه أحدهم من بطنه ويمزق أحشائه وهو يصرخ ولكن صوته غير مسموع وكأن صراخه لم يكن سوى داخلياً...

يمد يده لأمام ويستنجد بالمارة ولكن لا أحد شعر به وكأنه خفي غير مرئي لأحد..وكأنه في عالمٍ منفصل، وفي لحظه ما فتح بلال عيناه ليستفيق من كابوسه وذاك الحلم القاسي الذي راوده، ولبعض

الوقت شعر بأن جسده لازال مقيداً في سريره..حاول النهوض متثاقلاً وهو يجفف عرق جبينه صدره يرتفع وينخفض بشده وضربات قلبه تعالت أصواتها...فتح النافذة ليتخلل ضوء السماء الفجرى إلى غرفته..يرفع رأسه عالياً ليرى القمر منيراً فيحاول تناسي ما حدث ويناجى الرب ويستنجد به " أن لا قوه إلا بك "

ظل مستيقظا حتى الصباح وحتى أشرقت الشمس من جديد، يلتفت على صوت أحدٍ يطرق بابه فينهض من السرير بخطوات متثاقلة متجها نحوه.. إنه خالد!! فيسأله بضيق

- ماذا تريد؟!

رد خالد

- تأخرت!! إنها الثامنة والنصف

يبدو أن بلال لم يشعر بالوقت حين مر وهو غارقٌ فيما كان يفكر، بدل ملابسه سريعاً ثم خرج معه إلى الجامعة وعند بوابتها يفاجئ بندى ولكنه لا يمتلك من الطاقة ما يجعله يتحدث فتجاهلها، رغم أنه في أمس الحاجة إليها...

وفي طريق العودة قرر بلال عدم الذهاب للعمل في ذاك اليوم ليري ماذا سيفعل الساحر إن غاب عنه، فعاد إلى الشقة وكان منهكاً.. دخل إلى الغرفة ثم استلقى على سريره ومن شده الألم الذي كان يشعر به نام...

بعد عده دقائق يفتح عيناه ليشعر بغشاوة عليها قد جعلت من الجدران غير مرئية كأنها موج يرتفع وينخفض ورؤيته مشوشة..يحاول النهوض من مكانه فيأتيه صداع في رأسه فيمسكه بقوه وبكلتا يداه يضغطه بقدر المستطاع ويصرخ بشده فيشعر بدوار يسقطه أرضاً، يحاول النهوض متشبثًا بأي شيء حوله وحين كان يحاول أن ينهض يسقطه الدوار مره أخرى، وبعدها يشعر بأن قوه ما غريبة غير مرئية تحمله لمسافات بعيده لأعلى ثم تلقيه أرضاً بقوه ليرتطم رأسه ويزداد ألمه، حين يحاول النهوض يتكرر هذا معه حتى فقد القدرة تماماً على الحركة، ويشعر بشيء يخنقه فلا يستطيع التنفس وكأن مجري تنفسه قد أُغلق..يرفع بلال يداه ويمدهما أمامه مستنجدا بأي أحد ينادى بصوته المختنق بداخل جسده.

ورغم أنه يصرخ بصوت مرتفع ليسمعه أحد وينجده.. إلا أن الصوت كان أضعف من أن يخرج، أصبح يتشنج حتى استلقي بجسده على سطح أرض الغرفة وهو لا يملك من الأمر شيئًا، فيشعر بعدها بقوة غير مرئية تحمله لأعلى بحيث لا يستطيع لمس الأرض ولا الوصول إليها عاجزاً عن الحركة كالمقيد في تابوت موتى

يسمع صوتاً يصرخ في أذنه بقوه قائلًا

- عُد إلى ارتشميج...عد إلى ارتشميج

فيصرخ بلال بشده من هول ما سمع ورأى ليزداد علو الصوت وتكراره في أذنه حتى يستيقظ وهو يصرخ

- لاااا لاااا، فتح عيناه فوجد إيهاب واقفاً أمامه يهزه بقلق

- بلال.. بلال ما بك؟!

ينظر إليه بلال ولا يجيبه ويظل صدره يرتفع وينخفض بقوه.. يتنفس بسرعة وضربات قلبه لا تستطيع الهدوء فيأخذ نفساً عميقا ثم يخرجه ببطء، يعيد إيهاب سؤاله

- ماذا حدث لك؟ لماذا كنت تصرخ؟!

ينهض بلال من سريره ويسير متخبطاً يمسك برأسه قائلًا

- كابوس يا إيهاب...مجرد كابوس، لا تقلق

ثم يخرج من الغرفة ليغسل وجهه بماء بارد، ينظر في المرآة ليخفيه جسد قد شوهته معارك النفس.. فيتأمل صورته ليجد وجها شاحباً وعينان ذابلتان.. يشعر وكأن شخصاً آخر ينظر إليه في المرآة وليس هو فيتراجع للخلف.. ثم يقترب مره أخرى ويغلق عيناه مراراً ويفتحهما ليتأكد أن ما يرى هي صورته، ويجد أوردة زرقاء أصبحت تنتفخ في وجهه وتمتلئ بالدماء فيصرخ من الخوف ثم يضرب المرآة بيده فتتحطم وتجرح يداه، عاد إلى الغرفة مره أخرى ليبدل ملابسه، يراه إيهاب فينظر إليه بخوف

- بلال!! ما هذا الذي أنت عليه؟ أنت تشبه الوحوش

يصيح بلال فيشعر بأن صوته غير قابل للخروج من حلقه.. وكأنه أصبح أبكم، فيخرج من الشقة متجهًا إلى المتجر فهو يعلم أن السبب هو ارتشميج، يسير وفي عقله تدور آلاف الأسئلة.. ويقول في نفسه

- ذاك السفيه يستخدم حيله الخبيثة معي

يصل إلى المتجر فيجد ارتشميج جالسا يبتسم بخبث استشعره بلال.. يعود بنظره إلى خالد الذي لا يدري أهو خائف من ارتشميج لهذا يفضل الاستمرار في العمل معه أم أنه شرب من نفس كأس الشر التي يرتوي منها الساحر وأحب العمل حقاً وراق له؟

*****

أصبحت الأيام تمر بعدها وتتوالى وبلال مجبراً على ذاك العمل، يتألم كل يوم مما يفعل ولكنه لا يستطيع الرحيل فعائلته في خطر بسببه، أصبح يلوم الظروف والأشخاص والأماكن، حتى نفسه كان يلومها أنها ساعدت ذاك العجوز يوما.. ولكن من أين له أن يعلم بكل ما تخبئه له الأقدار؟!

*****

في إحدى ليالي الشتاء البارد كان بلال يعمل في المتجر كعادته حتى سمع صوتًا يناديه، إنه ارتشميج.. فذهب إليه مرغمًا

- ماذا تريد أيها اللعين؟

ربت الساحر على كتفه ثم قال

- لا تقل كلمه " تريد " هذه ثانيه، وذلك لأن الإرادة يمكن أن تحقق ومن الممكن ألا تحقق.. وحين تتحدث معي يجب أن تقول " ماذا تأمر " وذلك لأن الأمر يجب أن يُنَفذ

نظر إليه بلال بغضب ولم يعقب، حمل ارتشميج حقيبته قائلًا

- اتبعني يا أبله

ضغط بلال قبضه يده بقوه يحاول امتصاص غضبه ثم سار خلف الساحر نحو المكان الذي يأخذ به إليه ليفاجئ بلال أثناء السير أنهما متجهان إلى الغابة المظلمة التي تحوي المنزل الذي تصنع به المنحوتات، ومن بين الصمت الذي ساد

خرج صوت الساحر قائلًا

-أعلم أن المكان ليس غريباً عليك، فقد أتيت إلى هنا من قبل وتعرف المكان جيداً، صحيح؟

تعجب بلال من قوله وكيف علم بهذا وهو لم يره، فتابع العجوز قوله

- أتذكر ذاك اليوم؟!

صمت بلال فضحك الرجل قائلاً

- أتعلم أيضا؟!

حين وصلتُ إلى المتجر ولم أجدك علمت أنك تبعتني إلى هنا. وأنا الذي سلطت عليك أشباح الغابة تلقنك درسًا. وأظن أنك لن تنسي هذا الدرس ما دمت حيا. ثم التفت إليه وتابع

- مشكلتك أنك تظن نفسك أذكى منى. ولكنك لا تدري أني أعلم بكل ما يدور في رأسك.

ثم اقترب من أذنه وقال هامساً

- أنا قارئ أفكار يا عزيزي

نظر إليه بلال ثم أخذ نفساً عميقًا في محاوله لتنفيس الضيق الذي أصبح يستشعره ثم قال

- إلى أين نحن ذاهبان؟

فأكمل ارتشميج سيره قائلًا

- لا تقلق، لقد اقتربنا

رد بلال غاضباً

- هذا ليس طريق المنزل الذي تحضر منه منحوتاتك.. المنزل يقع في شرق الغابة وأنت تسير الآن تجاه الغرب

التفت إليه قائلًا

- ومن أخبرك أننا ذاهبان إلى المنزل؟

ثم توقف على بعد بئر من الماء قائلًا

- هذا هو المكان

فسأله بلال:

- وماذا سنفعل هنا؟

وضع الساحر حقيبته ثم أخرج منها بعض الكتب وأدوات السحر ثم جلس على إحدى الصخور وقال

- الآن قد حان وقت تعلم السحر الحقيقي، فما كنت تتعلمه لم يكن سوى بعض الألعاب الصغيرة التي نسلى بها الأطفال.. أما الآن فسأجعلك تؤذي البشر يا بلال.. وبنفسك

نظر إليه بلال بغضب فتابع الساحر قوله

- اهـدأ يـا عزيـزي، فإمـا أن تـؤذي البشـر كمـا آمـرك وإمـا أن أؤذى عائلتـك المسـكينة، والتي لا ذنـب لهـا في أي شـيء سـوى أن لهـا ابـن سفيه يشبهك سيهدم ما عملوا على بناءه لسنوات في عام واحد

صاح بلال

- ماذا تريد مني أن أفعل الآن، أنت تتمادى في طلباتك.. إياك أن تظن بأن صمتي ضعفًا

سار ارتشميج بضع خطوات نحوه ثم أمسك بذراعه وأخذ به واقترب من البئر ليري بلال فتاه شبه عارية.. مجرده من معظم ملابسها قدماها مقيدتان ويداها أيضاً مقيدتين للخلف.. تصرخ وتلتوى وكأنها تتألم من شيء يعذبها ولكن بلال لا يستطيع رؤيته، فنظر إلى ارتشميج قائلًا

- لماذا تفعل بها هذا؟ تلك المسكينة ماذا فعلت لك؟!

ظل ارتشميج ينظر إليها في سعادة وهي تتألم قائلًا

- إنها قربان إليهم

أزاح بلال نظره من على الفتاه ثم التفت إليه

- ماذا تقصد بهذه الكلمة؟!!

رد ارتشميج

- أقصد خدام الجان من أستعين بهم، ألا يستحقون قرباناً على عونهم لى؟

ثم يصمت قليلاً ويسير عده خطوات ويتابع حديثه

- الآن يا بلال سأعلمك كيف تقدم لهم القرابين، سأعلمك كيف تصنع سحر الموت ثم توقف وضحك قائلاً

- لقد كبرنا على ألعاب الأطفال التي كنت تتلقاها، ثم عقد حاجباه وتابع وهو يسير واضعا يداه خلف ظهره

- سحر الموت هو السحر الذي لا يستطيع أحدٌ الخلاص منه، أتدري ماذا يسمونه أيضاً؟ ...توقف عن السير وصمت قليلاً ثم نظر إلى بلال فوجده لا يريد أن يعرف فاقترب منه قائلًا

- سحر الموت ذاك يسمى السحر الأسود، وهذا لأن الضحية تموت بعد أربعين يومًا، ثم سار بضع خطوات والتفت إلى بلال وضحك بقوه قائلاً

- ما رأيك بأن نهلك العالم؟

صرخ بلال في وجهه

- شر، من أين لك بكل هذا الشر؟ إن كنت قد خلقت من الشر وليس من الطين مثلنا فلن تصبح بهذه القسوة

يضحك ارتشميج باستهزاء قائلًا

- هذا ما أحب سماعه من الجميع

رد بلال بغضب

- ستكوى بأفعالك في جهنم لتصهر بها ما برأسك من أفكار دنيئة

نظر إليه الساحر مستهزئا ثم قام بفتح حقيبته وأخرج منها بعض الرموز في أوراق ثم اقترب من بلال وأزاح قميصه وبدأ يلصق هذه الرموز على جسده وبلال ثابت في مكانه يسأله

- ما هذا الذي تضع؟

رد ارتشميج

- إنها بعض التمائم والرموز التي يجب أن يحملها كل ساحر وخاصة ذاك السحر الذي نزاوله

ثم تركه حين انتهى وسار بضع خطوات تجاه حقيبته ثم قام بحملها ونظر إلى بلال قائلًا

- يجب أن تحافظ على تلك الرموز التي تحملها..

والآن.. يمكنك الذهاب أينما شئت..

****

وقف بلال لبعض الوقت يشاهد الساحر وهو يحمل حقيبته ثم يبتعد عنه رويداً رويدًا بخطواته البطيئة.. تدمع عيناه من العجز حين ينظر إلى حاله وما أصبح عليه...

جسده الهزيل لم يعد يقوى حتى علي السير وبخطوات أصبحت تشبه خطوات العجوز أصبح يسير طريقه عائدًا إلى الشقة بعقل شارد يشعر بتلك الغشاوة التي أصبحت تغطى عيناه لتحجب عنه جمال الدنيا، جلس على مكتبه يقلب في صفحات كتبه بفقدان شغف ،

يحاول جمع أي معلومات دراسية ولكن دون جدوى، فالعقل أصبح منغمساً في عالم آخر لا يكف عن التفكير فيه

ترك بلال كتابه ثم خرج من الشقة يسير في الطرق لا يدري أين تقوده قدماه.. يريد الخروج من الضيق الذي يعتريه، فيفاجئ على أحد أرصفه الطريق بصوت ضعيف يناديه، التفت بلال حين شعر بأن ذاك الصوت مألوفا.. إنه بائع الزهور!!

اقترب منه بلال مبتسماً دون أن يشعر

- كيف حالك سيدي؟!

يرد العجوز

- لقد نسيت الزهور ورحلت

فابتسم بلال ثم جلس بجانبه على أحد مقاعد الأرصفة فسأله العجوز

- ماذا به جسدك؟! لقد أصبحت هزيلاً ووجهك ساده الذبول

ضحك بلال بضعف ثم نظر إلى العجوز قائلًا

- وهل يهم! أنا ...

قاطعه العجوز

- ذكرتني بنفسي قبل عشره أعوام.. كنت في نفس عمرك

نظر إليهبلال بعجب قائلًا

- أتقصد أنك تبلغ الآن ثمانية وعشرون عاماً؟!

أومأ العجوز برأسه دون أن يتحدث فاقترب منه بلال أكثر وسأله

- كيف ؟! أراك الآن عجوزاً سبعينيًا

تنهد العجوز ثم قال

- كان لي صديق هو من فعل بي هذا.. فقط لأني لم أرد العمل معه

نظر إلى بلال وكأنه لم يفهم مقصده فتابع العجوز

- كان يعمل بالسحر وحين عارضته رماني بأحد التعويذات فأصابت جسدي وفعلت بي هذا، دمرني ودمر العالم من بعدى

انتفض بلال من مجلسه وشخصت عيناه وهو ينظر للعجوز قائلًا

- أتقصد.. أتقصد ارتشميج!!

هز العجوز رأسه مؤيدًا دون أن يتفوه بكلمه ولكن...العقد الحمراء في عيناه تخبر بكل شيء..

(17)

في أحد الأيام وبينما كان بلال يعمل في المتجر حتى أتى شخص ليشترى بعض الكتب يتحدث إليه عن عنوان كتاب معين، وبينما صعد بلال على سلم خشبي ليبحث له عن كتابه الذي يريد حتى خرج ارتشميج من غرفته مناديًا بلال فالتفت الرجل لمصدر الصوت وحين رآه الساحر قام بالدخول مسرعاً إلى الغرفة وأغلق بابها، نظر إليه الرجل بدهشة ثم عاد بنظره إلى بلال قائلًا

- من هذا الشخص؟

أخذ بلال نفسًا عميقًا ثم أخرجه ببطء وقال

- إنه صاحب المتجر

فسأله الرجل:

- أتعرفه جيداً؟

فنظر إليه بلال ولم يجيب.. صمت قليلاً ثم أحضر من أحد الرفوف كتابا ثم نزل من السلم وأعطاه للرجل قائلًا

- أهذا الكتاب الذي تريد؟

فاقترب منه الرجل وهمس إليه

- نصيحتي إليك، غادر هذا المكان بأقصى سرعه تستطيع

فضحك مستهزئا

- هه كنت أتمنى

فهمس إليه الرجل مره أخرى:

- ماذا تقصد؟!

تنهد بعمقٍ ثم قال

- تفضل كتابك سيدي واتركني وشأني

أخذ الرجل الكتاب ثم غادر ولكنه استشعر أن بلال يخفى بداخله سراً ما لا يريد البوح به

*****

مضى أسبوعان ليقترب الوقت من اختبارات نهاية العام ولازال بلال يشعر بعقله يزداد تشتتاً.. يفكر في أشياء عديدة ويتساءل، حتى إن انتهت الدراسة وقررت العودة إلى موندراي فربما لن يسمح الساحر بذلك وسيستمر في التهديد.

ذهب بلال إلى حديقة جليبار الهادئة التي يحب الجلوس فيها ليسترخى لبعض الوقت تحت إحدى الأشجار، يمسك في يده أحد الكتب التي أهداها له والده قبل رحيله عن موندراي، يقلبه بين يداه ويبتسم، يسمع صوتاً يناديه فيلتفت ليجدها ندى، فيبستم إليها قائلًا

- أحيانا يرسل الله لنا الأشياء الجميلة في وقت الضيق رحمه بنا

فنظرت إليه مبتسمة ثم قالت بقلق

- أين كنت طوال الفترة الماضية؟

لقد حاولت الاتصال بك مراراً ولكنك لم تجب..

فابتسم ابتسامه قد امتزجت بالألم الذي بداخله ثم ضحك بقوة كمجنون وقال

- أنا بخير يا ندى.. بخير

تقترب منه قائلةً

- لست كذلك أبدًا، أنت لا تقول الحقيقة يا بلال.. إنني أستطيع فهم الإنسان من عيناه.. وعيناك لا يروق لي ذاك القلق الساكن فيهما

يرد بلال

- ليس هناك فارق بين أن يعيش الإنسان أو يموت في هذه البلاد.. كلا الأمرين لا يشكل فارقا ما دامت الحياة مؤذيه

تسأله ندى بقلق:

- ماذا تقصد؟

رد قائلًا

- أقصد أن اللعنة أصابتني، فتتت قوتي وهدمت كياني، زعزعت ثباتي ومن دون أن أشعر سلبت روحي.. رغماً عني جعلتني اشعر باللاشيء..

قاطعته قائله:

- بلال إن...

فقاطعها قائلًا

- لست بلال.. لم أعد كذلك، ذاك العالم الواسع المليء بالغموض قادر على تغييرنا في بضع دقائق

تنظر إليه وتهز رأسها في حزن ثم تصمت قليلا وتسأله

- ألازلت تسير في طريق الخطأ الذي أخبرتني عنه؟

يضحك بقوة قائلًا

- لم يقتصر الأمر على السير فيه فقط.. لقد تماديت دون أن أدرى وبضع خطوات غير محسوبة أطاحت بي دون أن اشعر..

ثم أمسك رأسه بكلتا يداه فانزاح قميصه ليكشف عن ساعده فترى ندى الرموز التي لصقها الساحر بجسده ، فتضع يدها على فهما وتشهق من الدهشة قائلة

- بلال، ما هذا ؟

يرد قائلًا :

- إنها آثار طريق الخطأ

تمسك برأسه بين يداها ثم تنظر إلى عينيه الذابلتين قائلة

- هل يمكنك أن تشرح لي هذا الأمر؟

يرد قائلًا

- لا أستطيع إخبارك بشيء.. ثم يصمت قليلا ويتابع

- ليتنى أستطيع أن أخبر أحدًا

فتجلس بصمت بجانبه بعض الوقت.. تنظر بعيداً ثم تلتفت إليه

- أرجوك يا بلال أخبرني بالأمر

فينظر إليها بحزن قائلًا

- كل ما أستطيع إخبارك به هو أنني مهدد من قوة تفوق قوتي أضعافاً، لا أستطيع التصدي لها ومجبر على السير في طريق أتألم منه..

صمتت ندى قليلاً تشعر بالحيرة من أمرها ثم قالت

- الأمر معقد حقاً، أنت تشبه ضحايا المنتصف، تلتفت إليه فتجده شاردًا يتأمل الطريق بجانب الحديقة في صمت فتضع يدها على صدره وتطمئنه بقولها

- لا تقلق.. سنجد حلًا مادمنا نفكر

ينظر إليها ضاحكاً باستهزاء

- أي حل الآن؟، لقد بحثت في الحلول جميعها ولم أتوصل لشيء والسبب لأني لا أستطيع التحدث مع أحد في تفاصيل الأمر، حتى الشرطة لا أستطيع اخبارها.. أنا مهدد فقط

تنهض من مكانها ثم تسير بضع خطوات ذهاباً وإيابًا ثم تعود بنظرها إليه مسرعه

- أتذكر شبان النادي الذين تخلصنا منهم؟

فنظر إليها بعجب قائلًا

- وما علاقتهم بما نريد الآن.. هل عادوا؟

فضحكت ندى دون أن تشعر ثم قالت

- لا، لست أقصد.. ثم جلست بجانبه قائلة

- لقد كانوا يبلغون من القوة ما لا نستطيع التصدي لها، ولهذا.. تعاملت معهم بالذكاء.. إنني لازلت أذكر قولك يومها، لقد كانت عبارتك دائما

" إن قوه العقل تفوق قوه البدن " أتذكر؟ ألم تكن هذه فكرتك؟!

ابتسم بلال ثم نهض من مكانه قائلًا

- لقد وجدتها، وجدتها يا ندى

تبتسم ندى بسعادة:

- حقاً !!، ماذا وجدت؟

فسار بضع خطوات ورد قائلًا

- اتركي هذا الأمر لي، ثم أعاد النظر إليها وتابع

- شكراً لأنك ذكرتيني بهذا، ثم اقترب منها وطبع قبله على جبينها فابتسمت وهي تمسك بذراعيه قائله وعيناها تلمعان فرحا

- حقًا يا بلال.. هل وجدت الحل فعلاً؟

فصمت قليلاً ثم عاد لينظر للطريق قائلًا

- كل ما في الأمر هو نقطه ضعف، يجب أن أجد نقطه ضعفه..

*****

في موندراي يجلس كريم في حديقة منزله يحتسى كوبًا من القهوة مع نور أسفل ضوء القمر، تأتى حنين مسرعه

- أبى.. أبى، فيلتفت كريم إليها مبتسماً

- نعم يا حنين

فتقف بجانبه ودقات قلبها تخفق بشده من الركض تتنفس بسرعة وتقول

- هناك شخص ما عند بوابه الحديقة يريدك..

يبتسم لها كريم قائلًا

- حسنا يا حلوتي، سأذهب لأرى من هو

عند بوابه الحديقة يفاجئ كريم بفارس زميل الجامعة وصديقه، فيندهش ويحتضنه بسعادة قائلًا

- فارس، كيف حالك؟ لقد أوحشتني يا رجل

فيبتسم فارس وهو ينظر إلى كريم قائلًا

- سنوات من العمر قد مضت ولم تغير فيك شيء، لازلت ذاك الشاب صاحب العشرون عاماً

فيضحك كريم قائلا

- تفضل إلى الداخل.. تفضل

*****

وفي حديقة المنزل يجلس فارس مع كريم يتذكران أيام الجامعة ويضحكان ثم وفي آخر الحديث ينظر فارس إلي بعيد شارد الذهن، فيحدثه كريم بقلق

- ما بك؟

يتنهد فارس ثم يسأله

- أتذكر جزيرة ساندرامون والساحر الذي كان سبباً في ذهابنا إليها

يهز كريم رأسه ثم يقول

- أجل، ولكن...لقد انتهى هذا الأمر منذ أعوام مضت يا فارس، لا أريد أن أتذكره مره أخرى.. وأظن أن ذاك الساحر لازال في السجن

يرد فارس

- لا يا كريم، الأمر لم ينتهي بعد

يسأله كريم بقلق: - ماذا تقصد؟

يرد فارس

- ارتشميج خارج سجون موندراي وهو الآن في اوباكو

يسأله كريم بدهشة: - ماذا؟

يرن هاتف فارس قاطعاً حديثهما فينهض معتذراً حين تذكر أن لديه موعدا هاما وعليه المغادرة فيحدثه كريم مندهشا

- إلى أين؟ لن أتركك تذهب إلا بعد أن تكمل لي ما بدأت

يرد فارس

- آسف يا كريم، سآتي غدا في نفس الموعد

يرد كريم بقلق

- حسنا. يمكنك الذهاب

يغادر فارس تاركًا كريم شارد الذهن يموج في قلقه حائراً لا يفهم شيئا مما يحدث ثم يعود ليتذكر حديث فارس وأن الساحر في اوباكو فينهض منتفضا

- بلال!!

(18)

تشرق شمس اليوم التالي على أرض اوباكو فيستيقظ بلال من نومه مبكرًا ليذهب إلى الجامعة كعادته، يسير الطريق وحده ويدور في رأسه حديث الأمس مع ندى وما أخبرته والفكرة التي ذكرته بها، يسير ويلفح وجهه هواء الشتاء البارد، يشعر بقطرات خفيفة من الماء تهطل فوق رأسه فيرفعه للسماء سائلا الله الهداية والرشاد

ازداد هطول المطر وكأن السماء انشقت وفتحت أبوابها لتتلقي دعواته بصدر رحب، ابتسم بلال حين استشعر معية الله واطمئن حين توكل عليه وسلم أمره إليه وكله ثقة بأن الله لا يرد عبدًا أتاه سائلًا، أسرع في خطاه إلى الجامعة كي يتفادى سيل المطر الذي ازداد حتى كاد أن يغرقه

وبعد عدة دقائق ها هو يصل إلى الجامعة ويصعد إلى مبنى الكلية ثم يجلس في المدرج بانتظار وقت بدء المحاضرة، يلتفت علي صوت زميله تامر يتحدث إلى حسن قائلًا

- لماذا لم تأتى بالأمس أنسيت موعدك معي؟

فيضرب حسن رأسه بيده قائلًا

- آسف يا تامر، أنت تعلم أن ذاكرتي ضعيفة بعض الشيء، لماذا لم تتصل بى لتذكرني؟!

سمع بلال حديثهما فابتسم وتتردد في أذنه عبارة حسن

" أنت تعلم أن ذاكرتي ضعيفة" ثم يعود بذاكرته إلى موقفا لازال يتردد أيضا على مسمعه حين كان يحدث إلى ارتشميج قائلًا

- جدي!! أتذكر أين الكتاب الذي تركته هنا؟

فيرد:

- يا بني، لقد تقدمت في السن كما ترى وذاكرتي أصبحت ضعيفة، لم أعد أتذكر شيء..

يعود بلال للواقع مرة أخرى على صوت تامر وحسن، فيبتسم محدثاً نفسه بصوت مرتفع قائلًا

- لقد وجدتها..

" ضعف الذاكرة " هذه هي نقطه ضعفه، يلتفت إليه حسن قائلًا

- أتقول شيئاً يا بلال؟

فيضحك بلال بسعادة ثم يحتضنه ويرحل وكأن تلك الفكرة أصبحت بمثابة كنز بين يديه.. نظر إليه حسن بعدما رحل ثم ضحك بصوت قد ارتفع وعاد بنظره إلى تامر قائلًا

- مجنون بحق

*****

دخل بلال الشقة مناديًا

- إيهاب.. إيهاب، أين أنت؟

يخرج إيهاب من غرفته مجيباً

- نعم يا بلال

نظر إليه مبتسما ثم اقترب منه وسأله بهدوء

- خالد هنا؟

فقال: - لا

أكمل بلال حديثه

- حسنا أريدك في أمر هام، إنه خاص بالعمل، فصاحب المتجر الذي أعمل به يريد نقل بعض الأشياء إلى خارج متجره ولكنى أريد أن أُفاجأه بالانتهاء منها.. ثم سار بضع خطوات وابتسم دون أن يريه وجهه ثم قال

- سيفرح كثيراً

صمت إيهاب قليلا ثم قال

- حسنا.. وما المانع في ذلك؟! سآتي معك، فأنا لن أنسى ما فعلته لأجلي

ضربه بلال برفق على كتفه ثم قال

- جيد يا صديقي ولكن هناك شيء

يلتفت إليه إيهاب:

- ماذا؟

يرد بلال

- لا أريد أن يعرف خالد أيضاً، فأنت تعلم أنه يعمل معي في نفس المكان

هز إيهاب رأسه موافقاً ثم سأله

- متى سنذهب ؟

صمت قليلا ثم أجاب وفق مُخططه

- سأخبرك عندما يحين الوقت

*****

غادر بلال الشقة إلي المتجر ليباشر عمله ، ولكنه ذهب هذه المرة بسعادة تغمره، دلف إلي المتجر مبتسما ينظر إلى خالد ملقيًا السلام ثم سار بضع خطوات بداخل المتجر متجها إلي غرفه ارتشميج

طرق الباب فأذن له بالدخول، دخل إلي الغرفة فوجد ارتشميج جالسا بجانب مكتبته يقرأ في أحد كتب السحر كعادته، اقترب منه ثم سحب كرسيا وجلس بجانب قائلًا

- أنا آسف يا جدي على ما فعلته، آسف لأني دخلت غرفتك من دون إذنك و...ولكن صدقني الأمر كان صدفه، كنت أرتب الغرفة فسقط منى ذاك الكتاب رغماً عنى..ثم صمت قليلًا وتابع

- ولكنك أيضا أخفيت كثيرًا من الحقائق عنّا، ما كان يجب أن تفعل هذا

همس إليه ارتشميج قائلًا

- أنا لا أحد يخبرني بما أفعل، وليس من حقك أن تقول لي كان يجب أو ما كان يجب فعل هذا أو ذاك..أتفهم ؟!

تنهد بلال وأخفى غضبه قائلًا

-حسنًا، ثم صمت قليلًا فتابع الساحر

- أنت تروق لي يا فتى، أخبرني إلى أي صفحه بلغت القراءة في كتاب السحر الذي أعطيتك إياه بالأمس ؟

صمت بلال قليلًا وكأنه يتذكر ثم قال

- تقريباً تخطيت الصفحة السادسة والسبعين

فيبتسم الساحر بخبث قائلًا

- أحسنت، استمر في ذلك

فيبتسم بلال ثم ينهض من مكانه قائلًا

- حسنا إن أخطأت في أحد التعويذات وصنعت سحراً ليس كما قصدت أن يكون، كيف أوقف مفعوله ؟

فنهض الساحر من كرسيه ومد يده إلى أحد الرفوف محضراً كتيباً صغيرًا لا يتعدى خمسون ورقه ثم أعطاه إلي بلال قائلًا

- هنا ستعلم كيف تبطل سحرًا صنعته

ابتسم بلال ثم شكره وغادر

خرج من الغرفة إلى المتجر ليساعد خالد في العمل حتى غربت الشمس، فجلس في أحد زوايا المتجر منهكًا ، ينظر حوله إلى كل تلك المنحوتات والتماثيل المعروضة علي الرفوف قائلًا

- كل هذه أسحار، يا لك من لعين متخفي في جسد نحيل..سأريك يا ارتشميج..

*****

(19)

في موندراي كان كريم في منزله منتظرًا مجيء فارس كما وعده، فهو لازال قلقًا منذ الأمس يفكر فيما قاله له، يسير في ردهة المنزل ذهابًا وإيابًا ينظر إلي ساعته حتى رن جرس الباب فأسرع إلى الحديقة ليفتح بوابتها قائلًا

- لماذا تأخرت ؟

يرد فارس ضاحكاً

- لم أتأخر..أنت فقط من تنتظر

يتحدث كريم بقلق

- حسناً .. حسناً، هيا إلى الداخل، ثم أخذ به إلى ردهة المنزل فجلسا يكملان حديثا بدأه فارس بالأمس

قال كريم

- أخبرتني أن ارتشميج في اوباكو

يرد فارس

- أجل، لقد رأيته في أحد المتاجر حين كنت أشتري كتابًا،ولكنه حين رآني اختبأ في غرفه داخليه ولم يخرج

فسأله كريم

- ألم تتخذ حكومة موندراي ضده حكما عادلًا

يرد فارس

- لقد تم الحكم عليه بالسجن المؤبد ولكن من المؤكد أنه هرب كما فعل من قبل

يصمت كريم قليلاً ثم يقول

- وماذا سنفعل الآن؟

تنهد فارس قائلًا :

- لست أدرى، ثم نهض من الأريكة وسار بضع خطوات حتى لمح على أحد الرفوف منحوتة جذبته ، فسار نحوها بدهشة ثم أمسك بها والتفت إلى كريم قائلًا

- من أين جئت بهذه ؟!

نظر إليه قائلًا

- ابني بلال هو الذي أحضرها من اوباكو يقول بأنها هديه من صاحب المتجر الذي يعمل به

نظر إليه فارس بصدمة

- ماذا تقول؟ ابنك اسمه بلال ؟! ، ثم إن تلك المنحوتة لا تباع إلا في متجر أرتشميج

تقطع صوت كريم قائلًا

- م مماذا؟ أتقصد أن بلال...

قاطعه صوت فارس حين رأى أحد الصور المعلقة على الحائط فاقترب منها

- أهذا بلال ؟!

فأجاب كريم :

- أجل..إنه هو

فوضع فارس يده فوق رأسه قائلًا

- إنه هو..

أسرع كريم إليه ثم امسكه من ذراعه وهو يقول

- ماذا تقصد ؟

سار فارس عده خطوات ثم أستند بيده علي ظهر الكرسي وقال

- إنه هو ذاك الشاب الذي كان في المتجر وابتاع لي الكتاب، ثم التفت إليه وتابع

- ابنك يعمل مع ارتشميج يا كريم

سمع كريم تلك العبارة فنبض قلبه بقوه وقال بصدمه

- بلال يعمل معه !! ولكنه لم يخبرني بذلك ، إنني أتركه يفعل ما يشاء ولكنى لم أتوقع يومًا أن يصل الأمر لهذا الحد..ماذا يريد ارتشميج من بلال ؟

أمسك فارس بالمنحوتة مره أخرى فسمع صوتا تصدره، فقربها من أذنه وهزها أكثر فازداد وضوح الصوت ، فنظر إلي كريم قائلًا

-أتسمع هذا؟ إن بها شيء ما...

أمسك بها كريم ومن شدة قلقه واضطرابه ألقاها أرضاً فتحطمت ليجد بداخلها كيسًا، ينحني ليمسك الكيس في يده ويفتحه فيجد به

رمال من بينها مجموعه أوراق صغيره ملتفة حول بعضها، أمسك بها فارس ليفتحها وأخذ يحدق بها في صدمه دون أن يتحدث، ثم ناولها لكريم الذي وجدها ممتلئة بالرموز السحرية التي كان يعرفها جيدًا ثم عاد بنظره إلى فارس قائلًا

- لازال ارتشميج يمارس سحره..يجب أن أسافر إلى اوباكو في أسرع وقت..!!

*****

على أرض اوباكو تشرق شمس يوم جديد، وها هو بلال في طريقه إلى العمل بعد أن انقضى يومه الدراسي..وعلي بعد عده أمتار من الجامعة، كان بلال قد وصل إلى المتجر ووجد خالد وارتشميج هناك، خالد منشغلا بالبيع وارتشميج يعد حقائبه للذهاب إلى الغابة، كان يضع بداخلها عده أشياء ثم توقف فجأة ونظر خلفه إلى غرفته وكأنه قد نسي شيئا ما، فعاد ليحضره تاركًا عبائته على كرسى بجانب الحقائب، فنظر إليها بلال مبتسماً وبعد عده دقائق عاد ارتشميج من الغرفة ثم حمل حقائبه وغادر

وقف بلال خارج المتجر يراقب ارتشميج وهو يبتعد شيئا فشيئا، مد يده إلى جيبه وأخرج هاتفه ثم أجري اتصالًا الى أحدهم..

- السلام عليكم إيهاب أتسمعني ؟

رد إيهاب بهدوء

- وعليكم السلام يا بلال ، أجل أسمعك، ما به صوتك ؟

قال بلال

- تعال بسرعة، أنتظرك في المتجر

رد إيهاب دون تردد

- حسناً حسنًا ، أنا قادم

بعد عدة دقائق من انتهاء المكالمة كان إيهاب قادمًا على بعد ليس بكبير من المتجر وحينما رآه بلال أسرع إليه قبل أن يصل منها

- خالد هناك

نظر إليه بحزم قائلًا

- حسناً، اترك هذا الأمر لي

دلف إيهاب إلى المتجر ملقيًا السلام على خالد الذي كان سعيداً جدًا برؤيته فجلس الثلاثة يتحدثون لبعض الوقت وبلال ينظر إلى إيهاب وكأنه يخبره أننا لا نملك وقتا لهذا الهراء، لمحه إيهاب ثم عاد بنظره إلى خالد قائلًا

- خالد !! أيمكنك أن تعود إلى الشقة وتحضر لي أدويتي..لقد حان وقت تناولها ونسيتها هناك

نظر إليه خالد مبتسما

- حسنا لن أتأخر

*****

في نفس ذاك الوقت كانت طائرة قادمة من موندراي تحط بعجلاتها فوق أرض أوباكو، يهبط كريم وفارس بعد أن توقفت..يسيران خارج

المطار نحو الطريق متجهان إلى مسكن بلال..ولكي لا يضيع الوقت منهما، استقلا سيارة أجره حتي هناك..وأمام مبنى ميشاند توقفت السيارة ليخرج منها كريم مسرعا حتى مدخل المبنى فيلتقي بحكيم قائلًا

- أوصلني إلى غرفه بلال من فضلك

يرفع حكيم عيناه من حاسوبه وينظر إلى كريم متعجبا فيسأله

- الاسم كاملاً من فضلك

يرد كريم بسرعة :

- بلال كريم أيمن

يقاطعه صوت حكيم

- بلال !! لقد رحل منذ مده طويلة

ينظر إليه كريم بصدمه قائلًا

- رحل !! ، ولكن...إلى أين ؟

فيرد حكيم

- لست أدري..حاولت التحدث إليه ولكنه لم يجيبنى

نظر كريم إلي فارس دون أن يتحدث ثم عاد بنظره إلى حكيم سائلًا

- أتعرف لماذا رحل عن هنا؟ إن هذا أنسب مكان له وقريب من جامعته

نهض حكيم من مقعده ثم سار بضع خطوات ونظر إليه قائلًا

- لقد كان يتلقي رسائل من مصدر مجهول سببت قلقا كبيرا له فرحل

عاد ليسأله كريم متعجبًا

- وأنت !!..ألم تستطع التوصل إلي مرسل تلك الرسائل ؟

رد حكيم

- لقد بذلت إدارة المبنى أقصي جهودها ولكن..دون جدوى

ازداد القلق بداخل كريم ثم نظر إلي فارس

- ماذا سنفعل ؟

رد فارس بحزم

- لن نجده إلا في مكان واحد، ولكن لن نذهب وحدنا

*****

(20)

في المتجر كان إيهاب وبلال وحدهما بعد أن غادرهما خالد إلى الشقة..دخل بلال إلى غرفه ارتشميج مقترباً من رفوف الكتب ثم أحضر حقيبة كبيره ووضعها بداخلها ثم حملها إلى منتصف الطريق وألقى بها أرضًا و عاد إلى إيهاب ليجده قد جهز له مجموعه كتب أخرى...ثم دلف يبحث عن كل ما له علاقة بالسحر ليرميه خارجاً، حتى أصبحت الغرفة خاليه تماماً من كل هذه الأشياء، ثم عاد إلى الخارج وأشعل النيران بها جميعاً.

تتطاير أوراق الكتب ثم تعود لتهبط فوق النار فتشتعل وبلال واقفًا ينظر إليها بسعادة مبتسماً حتى فوجئ بأرتشميج قادما من بعيد وقد رأى الدخان قد ملأ المكان فأسرع في خطاه نحو بلال بغضب قائلًا

- من فعل هذا ؟

نظر إليه بلال دون أن يجيبه، فألقى ما بيده من حقائب ثم دخل إلى غرفته يتأملها بغضب وبلال ينظر إليه من خارج المتجر ويبتسم..

أسرع الساحر في خطاه نحوه ثم أمسكه من قميصه

- ماذا فعلت بكتبي وممتلكاتي ؟

رفع بلال رأسه لأعلى قائلًا

- فعلت بها ما تستحقه وما يجب لها أن تكون

تراجع الساحر ثم صاح

- سأريك يا أبله ماذا سأفعل بك ؟

ثم أدخل يده في عباءته يبحث عن العصا وبعض أوراق السحر فلم يجدها..وقف يبحث جيداً في صدمه وبلال ينظر إليه ويضحك بقوة قائلًا

- انسي أن تجدها مرة أخرى..أنت لا شيء بدونها ، أنت ضعيف يا ارتشميج، قوتك تكمن في أشياء تحملها ، تلك العصا وبعض الكتب هي نقطه ضعفك. أليس هذا صحيحاً ؟!

صاح الساحر

- لا أحب سماع تلك الكلمة..أنا لست ضعيفاً يا سفيه وسأجعلك ترى، ثم سار عدة خطوات بغضب مقتربًا من حقائبه ثم أخرج منها بعض الأوراق الأخرى التي كان يحتفظ بها بعيدًا عن المتجر ثم بدأ يردد بعض الكلمات والعبارات بصوت مرتفع وهو يرفع يداه لأعلى وكأنه يستحضر أرواحاً ثم صوبهما تجاه بلال فارتعد جسده وكأنه قد ضُرب بطلق ناري في صدره..

نظر بلال إلى يديه فوجد جلد جسده يتجعد ويبدأ بالانكماش وكأنه قد تقدم في عمره لسنوات، فتذكر العجوز الذي يبيع الأزهار وما فعل هذا الساحر به أيضا، ثم بدأت أُذناه تخرج سائلًا أسود اللون ورأي أشياء غريبة تحوم حوله فسقط أرضا علي يداه وهو ينظر صوب عين ذاك الساحر يحاول استجماع قواه لينهض ولكنه لم يستطع

وعاود السقوط أكثر حتي لامس رأسه الأرض فأسرع إليه إيهاب يضمه إلى صدره ويصرخ في وجه الساحر

- توقف عن فعل هذا، لقد فقد وعيه..توقف

والساحر تتعالي ضحكاته يريد أن يخبر الجميع أنه هو المنتصر، استوقفه صوت قد ارتفع من خلفه قائلًا

- توقف يا ارتشميج

التفت الساحر ليفاجئ بكريم وفارس واقفان ينظران إليه بغضب فضحك مستهزئا

- هه أهلا بك يا صديقي القديم، أيروق لك ولدك الآن؟ لقد جعلته يركع أمام تعويذاتي..السفيه يظن نفسه أضعفني أو وجد لي نقطه ضعف

صرخ كريم في وجهه

- ستلقى جزاءك يا لعين..ما ذنبه ؟

ضحك الساحر بصوت أقوى قائلًا

- ذنبه أنه ابنك..أتذكر ماذا فعلت بى منذ خمس وعشرون عاماً ؟

رد كريم

- لم أفعل سوى الصواب..أما أنت فيجب أن يوضع لك حداً

ابتسم الساحر بكل خبث ثم قال

- حسناً سأتخلص منك الآن قبل أن تضع لي حدًا، ثم أخذ يتمتم بتعويذات أخرى ويصيح فاستوقفه صوت بلال يأتي من خلفه قائلًا

- توقف يا ارتشميج..

التفت إليه الساحر ليراه وقد استطاع الوقوف ولكن قدماه لازالت تهتزان من ضعفهما فتابع بلال قوله

- توقف عن محاربه البشر تحت مسمى الانتقام ممن أفسدوا مخططاتك...إن كنت تريد أن تحارب بحق، فيجب أن تحارب ساحراً مثلك...ثم وقف رافعا صدره للسماء بصعوبة وهو يمسك برأسه ثم تابع بغضب وقد علا صوته

- حاربني يا ارتشميج..

فضحك الساحر مستهزئا

- أنت..أُحاربك أنت؟ وبينما هو يتمايل كشاربي الخمور ويستهزئ قام بلال بإلقاء أقوى تعويذه قد تعلمها فأطاحت بالساحر لمسافات بعيده للخلف حتى ألقت به في وسط الطريق وسقطت منه عصاه وتطايرت أوراق السحر التي يحملها، أكمل بلال السير ببطء تجاهه يمسك بقدمه التي جرحت من أثر السقوط حتى وصل إليه ثم امسكه من قميصه قائلًا

- أتريد الانتقام من عائلتي يا ارتشميج؟ إذا سأريك، ثم تمتم بعبارات أخرى وجمل سحريه قويه فأطاحت به لمسافات أبعد للخلف ، ثم استخدم يداه ووجهما تجاهه ونطق ببعض الكلمات الأخرى فأصبح الساحر يُحمل لمسافات في الهواء ثم يلقى أرضاً فترتطم رأسه

بالأرصفة مراراً حتى فقد القدرة تماماً على الحركة..فاقترب منه بلال قائلاً

- هل تأكدت الآن أنك بدون تلك الكتب وعصاك لا شيء؟ هل تأكدت بأنها نقطه ضعفك التي لا تريد الاعتراف بها !!

يقف كريم وفارس من خلفه يشاهدان ما يحدث في صمت وصدمه..كريم لا يصدق ما تراه عيناه..أحقاً ابنه تعلم السحر وأصبح يزاوله ؟!

ومن بين النيران التي كانت لاتزال مشتعلة عبرت سيارات الشرطة وسط الدخان لتصل إلى متجر ارتشميج بعد أن ابلغ فارس وكريم وزير أمن البلاد..ووسط زحام من المارة الذين اجتمعوا وحشد رجال الشرطة تم القبض على ارتشميج للمرة الثانية ومحاصره أملاكه..وقبل أن يغادر بلال المكان ، دلف إلى المتجر ثم أخرج باقي المنحوتات وألقاها في النار ووقف يراقبها تشتعل وهو يبتسم منصرًا..

ثم سار بضع خطوات تجاه والده واحتضنه باكياً ثم قال مبتسماً وهو يضع يده على كتف والده

- أظن أن الحكم هذه المرة سيكون إعداماً وليس مؤبد

ضحك كريم ثم احتضن ولده وهو يبكى لا يدرى أشعور الخوف عليه الذي أبكاه أكبر أم شعور الفرحة بالانتصار الذي حققه ؟

نظر بلال خلفه ليرى إيهاب جاثيا على ركبتاه في صدمه فهو لم يتوقع حدوث أي من هذا

فاقترب منه بلال في ضعف ثم احتضنه قائلًا

- آسف لأني لم أخبرك بحقيقة الأمر ولكن إن كنت قد أخبرتك فما كانت خطتي لتنجح

وصل خالد في تلك اللحظة ينظر حوله ممسكاً بأدوية إيهاب في يده قائلًا

- ماذا حدث؟ وما كل هذه الحرائق؟ ولِمَ الشرطة هنا؟ وأين الجد صالح ؟

نظر إليه بلال ثم أشار بيده خلفه

- أتقصد ذاك اللعين الهارب من العدالة ؟

استدار خالد ليرى ارتشميج مقيدًا ينظر إليهم من بعيد بعينيه التي لاتزال تحمل الشر تكتظ بداخلها الأوردة مكونه عقداً حمراء كأنها الجحيم

فصاح خالد ثم دفع ببلال الذي كان يقف أمامه فسقط أرضا فتركه ثم أسرع إلي ارتشميج يدفع عنه رجال الشرطة ويصرخ قائلاً

- لا..إنه لم يفعل شيئا، أعيدوه

ينظر إليه بلال وإيهاب في دهشة ولكن بلال لم يكن يقوى على الكلام..التفتت الشرطة فرأت خالد يصيح ويطالب بعوده ارتشميج فعادت لتأخذه فأشار لهم بلال بيده فجاءه شرطي قائلًا

- أتريد قول شيء

رد بلال بضعف وصوت متقطع

- لا تأخذوا خالد، إنه ليس له ذنب في أي مما حدث..إنه فقط لا يستطيع فهم الأمور..

صاح خالد مره أخرى قائلًا

- أنا أفهم كل شيء..أريده أن يعوود

فنظر الشرطي إلى بلال قائلًا

- يجب أن أخذه معي الآن..أنا لا أملك خيارًا بعد أن قال هذا

نظر إليه بلال بعينين دامعتين حزناً على ما فعل بنفسه وما وصل إليه..فهو لا يملك له الآن من الأمر شيئا

قبض الشرطي على خالد وهو يقاوم وداخله ملئ بالشر، لم يعد يخشى بلال ارتشميج بعد الآن فقصته قد انتهت ولكن كل ما يخشاه بعد ذلك هو أن يخرج خالد من السجن ساحراً طاغياً لا يختلف عن ارتشميج شيئاً ..

****

ينظر بلال حوله فيري ندى قادمة من بعيد بعد أن رأت الحريق قد ملأ المكان وهي تعبر إحدى الطرق القريبة من المتجر

- أتيت لأطمئن عليك، ما هذا الذي حدث لجسدك؟!

تضع يدها على وجهه الذي امتلأ غبارا وتمسح عرق جبينه بيدها ثم تعود بنظرها إلي قدمه فتجدها مجروحة بجرح غائر، ينظر إليها بلال مرهقا وأذناه لاتزال تخرج ذاك السائل الأسود فترمقه بعينين تدمعين قائلةً

- بلال !! اصمد أرجوك..

ثم تنادى إيهاب بينما يقف كريم وفارس مع شرطه التحقيقات فيأتي مسرعاً

- ما الأمر !!

فتنظر إليه بعينين دامعتين

- أرجوك يا إيهاب افعل شيئاً لإيقاف هذا السائل الأسود، بلال يكاد يفقد وعيه

نظر إليها بعجز ثم عاد بنظره إلى بلال الذي أشار بيده بضعف إلى ورقه صغيره ملقاة علي الأرض بجانبه، نظر إليها إيهاب ثم ألتقطها ليقرأ بعض العبارات الغير مفهومه تحت عنوان" كيف تبطل سحرًا " ، فأيقن أن ما قد أثر على بلال هو السحر الذي رماه به ارتشميج قبل أن يتم القبض عليه..

أمسك بالورقة بيده اليمنى ثم وضع اليسرى على رأس بلال وبدأ في ترديد تلك العبارات أيا كانت طريقه قولها في محاوله منه لإنقاذ صديقه وبلال يصرخ كلما ازداد إيهاب في القراءة فيتوقف ناظراً إليها بقلق ،فيشير إليه بلال

- استمر لا تتوقف

وبعد ربع ساعة من الترديد توقف نزيف الأذن وبدأت تغيرات جسده تعود لما كانت عليه فابتسمت ندي إلى إيهاب ثم عادت بنظرها إلى بلال قائله

- هل تشعر بتحسن الآن ؟

هز بلال رأسه دون أن يتحدث ثم نهض واقفاً يستند على كتف صديقه، أتى والده من بعيد بعد أن أنهى حديثه مع رجال الشرطة حول ارتشميج، اقترب من بلال قائلًا

- لا تقلق يا بني..غداً سنعود إلى موندراي وسيتوقف كل شيء، ثم تركه وذهب إلى فارس الذي كان يناديه..نظر بلال إلى ندى فوجد عيناها تلمعان من دموعها وهي تبتسم لاخفائها

فضمها إلى صدره ثم تنفس بعمق وكاد أن يبكي ولكنه تمالك نفسه..

******

في شرفه الشقة يقف بلال بعد يوم قد أرهقه بكل ما تحمل الكلمة من معنى، يراقب نجوم السماء ويشكر الرب أنه ساعده، يلسع وجهه برودة الهواء الذي يلفحه، يدور في رأسه أحداث اليوم فيبتسم ، ورغم أنه لازال يتألم مما فعل به الساحر إلا أن شعوره بالنصر وفرحته أنسته كل ما يشعر...ينظر للقمر ويتذكر ندى..فينبض قلبه ويبتسم متألماً على فراقها، أحقاً سيعود غداً إلى موندراي ولن يراها مجدداً؟ ظل يتساءل وقلبه ينبض ألما حتى شعر بأحد ما واقفاً خلفه يضع يده على كتفه قائلًا

- بلال !! لمَ أنت مستيقظ حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

إنه صوت والده، فيبتسم ثم يرد قائلًا

- لا شيء يا أبي، لا شيء، أنا فقط أتنفس بعض الهواء البارد

لازال كريم جاهلاً بما حدث لا يدري أي تفسير لما رأى ولا يعلم كيف التقي بلال بهذا الساحر وكيف عمل معه، وهل هذا برغبة منه أن كان رغما عنه..يصمت قليلاً ليفكر ثم يعود بنظره إلى بلال سائلًا

- بلال !! ما الذي دفعك للعمل مع ارتشميج ؟

نظر بلال بعيداً ثم تنهد وقال

- لقد خدعني في بداية الأمر، ثم بعدها هددني وأجبرني، لم أكن أملك خيارًا ولم يسعني شيئًا لفعله

نظر إليه كريم وقال

- أتعلم يا بني؟ ثم صمت قليلاً وتابع

- جدك أخطا، وأنا أخطأت...نظر إلى بلال مستغرباً ما يقول فتابع

جدك أخطا حين كان يجبرني علي فعل كل ما كان يريد وما يروق له دون أن ينظر لما أردت أو يستمع لي..

وأنا كذلك.. أخطأت حين تركتك تفعل ما تريد دون أن تسألني..كلا الأمرين كان خطأ...

حين كان يعاملني جدك بهذه الطريقة كنت دائماً أشعر بالضيق والعجز عن الرفض في غالب الأحيان ، كنت أشعر بأن شخصا آخر هو من يتحكم في حياتي، لهذا لم أُرد أن أُعاملك بنفس المبدأ..أردت أن اترك لك الحرية تفعل ما تشاء، ولكني لم أكن أُدرك أن الحرية المطلقة التي منحتك إياها ستؤدي بك لكل هذا، لقد أدت بك إلى بحار أخرى من التجارب التي لا تعلم عنها شيء..

كان يجب أن أتخذ حلًا وسطياً..لا أن أسيطر على جميع أفكارك ولا أتركك تموج فيما لا تعلم...

كان بلال يستمع إليه في هدوء وصمت وكأن الكلام أقنعه.. هز رأسه مؤيدا ثم قال

- أنت محق يا أبي

ربت كريم على كتفه ثم ابتسم قائلًا

- لا تقلق..سنعود غداً وينتهي كل شيء

التفت إليه بلال قائلًا

- والجامعة !! كيف سأكمل دراسة هذا العام وأنا في بلاد أخري؟ لم يتبقى سوى أسابيع قليله وستبدأ الاختبارات..

إن رحلت عن هنا سوف أرسب يا أبي وسأفقد مجهود العام كله..وأنا لم آتى إلى هنا ليصبح في نهاية المطاف الرسوب حليفي..

صمت كريم قليلاً فقال بلال دون أن يشعر

- وندى !! ثم صمت..

رد كريم :

- تقصد تلك الفتاه التي كانت معنا بالأمس ؟

أجاب بلال وعيناه تلمعان

-أجل..إنها كذلك، كيف سأعود إلى موندراي وهي هنا يا أبي..؟ إنها بمثابة والدتي حين التَقَيتَ بها،أتتفهم الأمر ؟

نظر كريم بعيداً إلى السماء محدقاً بالنجوم ثم قال
- ولكني سأخشى عليك البُعد بعد الآن.. أتفهم قصدي؟
صمت بلال دون أن يتحدث فربت كريم علي كتفه مبتسماً ثم دلف إلى الداخل وتركه بينما ظل بلال شاردًا بذهنه واقفاً في مكانه يحدق في السماء ويتنفس الضيق

*****

أتى الصباح ملبدًا بالغيوم عاصفا بالرياح، يقف بلال مع والده وصديقه فارس في المطار منتظراً موعد إقلاع الطائرة شارداً مشوش العقل يفكر في ندى، سار بضع خطوات لإفناء الوقت حتى وصل إلى نفس المكان الذي كان يجلس فيه منذ أشهر حين كان عائداً في إجازة إلى موندراي وأتت ندي لتودعه، يتذكر الموقف وكأنه يراها أمامه ويبتسم، ينظر بعيداً فيفاجئ بها آتيه من بعيد فيبتهج قلبه، سار عده خطوات نحوها ينظر إلى عيناها فيجدها تبتسم وهي تخفي دموعها قائله بصوت مختنق
- بلال !! هل ستعود إلى موندراي حقًا؟!
تدمع عيناه فيقاوم الدموع من أن تهطل ثم ينظر بعيدًا ويقول
- يجب أن أعود يا ندى
تبتسم إليه فيحتضنها بقوة الألم الذي يشعر به قائلًا

- صدقيني كنت أتمنى أن أظل فقط لأجلك، فأنا لن أنسى كل ما فعلته لأجلي، أنا...أنا أحبك بقدر ما تحبينني وأكثر، لست أدري كيف سأكون سعيدًا في موندراي..

تبكي ثم تلتفت للخلف لتمسح دموع عيناها قائلة

- يجب أن أعود الآن

يمسك بلال بيدها فتفلتها بحزن دون أن تلتفت إليه ثم تخطو عدة خطوات بعيداً عنه فيناديها بصوت متقطع وهي لاتزال تسير للأمام دون أن تلتفت فيعلو صوته ويناديها بقوه هزت كيانه

- نداااا..نداااااا عودي إلى هنااا

تتركه وترحل فيخفق قلبه بشده وتمتلئ عيناه دموعًا ويشعر بالقهر ينتشر بداخله جراء الكسرة، ثم يسمع صوتاً حوله يخبر بأن الطائرة ستقلع بعد عشر دقائق تدمع عيناه أكثر ويقف في المنتصف عاجزاً عن العودة إلى والده أو الذهاب إليها..يشعر بصوت والده يناديه فيلتفت خلفه..

- هيا يا بلال..عدة دقائق وستقلع الطائرة

تنهد بلال بعمق ثم قال

-أبي..أريد التحدث إليك

نظر إليه كريم بدهشة قائلًا

- الوقت ليس مناسبًا، سنتحدث في الطائرة

أمسك بلال بذراعه قائلاً

- من فضلك يا أبي، أريد التحدث الآن

فينظر إليه كريم بدهشة

- هل الأمر ضروريا لهذا الحد ؟

يتنهد بلال بعمق ثم يجيبه

-أجل ..ثم تابع

- في الإجازة الماضية حين كنت في موندراي وجلسنا على الشاطئ أتذكر؟

هز كريم رأسه مؤيداً فتابع بلال

- حينها سألتك " ألازلت تحب البحر يا أبي؟ "

كانت إجابتك دون تردد أجل..ثم تابعت قولك بعدها

" كيف لا أحب وهو من قربني إلى والدتك ؟! "

ورغم أن البحر أدى بك إلى جزيرة ساندرامون وكدت تهلك فيها إلا أنك لازلت تحبه لأنه قربك من شخص تحبه..وهذا ما زاد يقينك يومها..لعل الخير يكمن في الشر

يسمع كريم في صمت فنظر بلال بعيدا ثم تابع

- هكذا اوباكو بالنسبة لي.. لاقيت منها الكثير ولكنني أحبها يا أبي ..أتفهمني ؟

تنهد كريم ثم قال

- أتقصد " ندى " ؟

رد بلال

- أقصد ندى وإيهاب وجميع من عرفتهم هنا..غير أن ندى تعني لي الكثير، ثم إنك الآن تريدني ترك الجامعة..وسيضيع مجهود العام كله مني..

سار كريم بضع خطوات ثم التفت إليه قائلًا

- ولكنى كما أخبرتك، سأخشى عليك التواجد هنا وحدك

رد بلال

- من حق أي إنسان أن يخوض التجارب ويتعلم.. ومن الطبيعي أن يخطئ ويتألم، وإلا فلن يتعلم شيئاً في حياته، وأنت تعلم كيف واجهت ارتشميج وما فعلت به حينها..أنسيت أني أصبحت ساحرًا

ضحك كريم ثم قال

- وهذا ما أخشى عليك منه..

رد بلال :

- لا تخشى شيئًا، فأنا لن استخدم ذاك السحر أبدا

عانقه كريم بقوه مبتسماً مربتًا على كتفه ثم عاد لينظر إليه قائلًا

- عد إلي الجامعة بلال وعد إلى إيهاب، وأكمل دراستك ولكن !! كن حذرًا هذه المرة..

ابتسم بلال وابتهج قلبه ثم احتضن والده قائلًا

- أوصل سلامي إلى والدتي وحنين..أخبرهم أن الإجازة اقتربت وسأعود بعد انتهاء اختبارات هذا العام

ربت كريم على كتفه ثم التفت على صوت فارس

- هيا، ستقلع الطائرة بعد دقيقتين

تركه كريم مغادراً بينما عاد بلال أدراجه الطريق خارج المطار مبتهج القلب لأنه سيستكمل مسيرته الدراسية وسيعود إلى ندى..وخارج المطار اندهش حينما وجدها جالسه في أحد مقاعد الانتظار على الطريق شاردة الذهن وعيناها لازالت تدمعان..فاقترب منها هامساً ببهجة

- ندى..ندى، لقد عدت

التفتت إليه بدهشة أكبر وقالت متلعثمة وقد تبدلت دموعها إلى فرح

- من؟ بلال !! كيف لم ترحل ؟!! ثم نهضت واحتضنته وهو ينظر إليها بسعادة هو الآخر ويبتسم..ثم يضمها إلى قلبه فتسمع نبضاته لتطمئن بها مره أخرى، يعود لينظر إلي عيناها المتلألئتان وهو لازال يمسك بكلتا يداها في بهجة قلب وسعادة غمرتهما

*****

في الطائرة يجلس فارس مع كريم متحدثًا إليه

- لماذا لم يأت بلال ؟

صمت كريم قليلًا ثم قال

- يجب أن يكمل ما بدأه، من فرط خوفي عليه كدت أعود إلى خطأ والدي وأتحكم كليًا في حياته، ما رأيت بالأمس جعلني أرفض استكمال دراسته هنا ف الجامعة وهذا خطأ..ولكنه ذكرني بالصواب وفعله..وما دام يستبصر الصواب والخطأ ،فأنا مطمئن

فيبتسم فارس وتقلع الطائرة محلقة في سماء اوباكو متجهة إلى موندراي، يلحظها بلال وهو يقف على أحد أرصفه الطرق فينظر إليها مبتسمًا وهو يضع يده على قلبه حين استشعر نبضاته تزداد وهى تودع والده..

يقف على الرصيف ممسكاً بيد ندى حتى وجد سيارة أُجره واقفة، فذهبا نحوها ليستقلاها وذلك لأن المطار بعيد جداً عن مقصدهما..وبعد ركوبهما السيارة ابتسم صاحبها قائلاً

- لقد انتظرتكم طويلاً

نظر إليه بلال في مرآه السيارة شاخص العينان ثم عاد بذاكرته لأول يوم جاء فيه إلى اوباكو وقابله ارتشميج بنفس العبارة فنبض قلبه بقوه حتى استطاع سماعه ثم سأل الرجل

- انتظرت من ؟

ثم نظر إلى ندى فوجدها تنظر إليه بدهشة هي الأخرى ثم خرجا من السيارة يركضان عبر الطريق وهما يضحكان بقوة كمجنونان قد سمعا شيفرة لا يفهمها سواهما

*****

تمت بحمد الله